تاريخ التشيّع

الفكري والسياسي

تأليف
السّيّد صدر الدين القبانچي

فهرس المطالب

- تمهيد

1 . التشيّع في مفهومه الصحيح

- التشيّع إتجاه فكري وسياسي
- الحركة التكاملية في المذهب الشيعي
- الإمامة والوراثة

2 . نشأة التشيع

- أ . منطق الحركة
- ب . طبيعة الحركة
- آراء أُخرى في نشأة التشيع
- الرأي الأول: أيام خلافة عثمان بن عفان
- الرأي الثاني

3 . عصر الرسول (ص) دور وضع النظرية

- خطوط عريضة:
- المهمة الأولى: بناء الطليعة
- الإعداد الرسالي
- الاندماج مع الرسالة
- المهمة الثانية:ربط الأُمّة بالطليعة
- أولا: التعريف بالطليعة
- ثانياً: الدعوة لإلتزامهم

ثالثاً: التأكيد على قيادتهم

- رسول الله (ص) والبيت الهاشمي
- احتياطات أخرة

مراحل التاريخ الشيعي

- المرحلة الأولى: مرحلة عصر الأئمة (ع)
- الدور الأول: بناء قاعدة التشيّع 10 . 61 هـ
- مبررات المعارضة
- طبيعة المرحلة
- خطورة موقع القيادة
- خلافة السقيفة.. تقييم سريع
- 1 . درجة استيعاب الرسالة
- 2 . درجة الإندماج مع الرسالة

1 . عصر الأئمة (ع) مهمّات الدور الأول

- المهمة الأولى: بناء القاعدة الشيعية
- المهمة الثانية: مواجهة المشكلة العلميّة
- المهمة الثالثة: الرقابة الرسالية

2 . عصر الأئمة (ع) الموقف السياسي

- 1 . علي (ع) في عهد الخلفاء الثلاثة
- الطريق الأول:
- الطريق الثاني:
- الطريق الثالث:
- الطريق الرابع:

- قوى الحكم تغول التشيّع
- المنهاج الجديد
- طبيعة الانفتاح
- التحرّك الشيعي
- توجّس الخليفة
- تحرّك القوى الانتهازية
- التآمر على الخليفة
- فهم المرحلة
- الشورى السداسيّة

تمهيد

1 . التشيّع في مفهومه الصحيح.

2 . نشأة التشيّع.

3 . عصر الرسول (ص) دور وضع النظريّة.

الصفحة 6

الصفحة 7

(1)

التشيّع في مفهومه الصحيح

يمكن اعطاء المفهوم الصحيح للتشيّع بالعبارة التالية:

إنّ التشيّع هو المدرسة التي تبنتّزعامة أهل البيت (ع) فكريا وًسياسيا، وًمنزاوية تأريخية هو الحركة التي ناضلت من أجل هذه الزعامة بوصفها القيادة الإسلامية الصادقةوالمستوعبة، وبوصف اهل البيت (ع) الممثّلون الحقيقيون للإسلام.

فقد افترق المسلمون بعد عصر الرسول (ص) إلى اتجاهين:

الاتجاه الموالي فكرياً وسياسياً لأهل البيت (ع);

والاتجاه الذي لا يحمل هذا الولاء،ولا يعترف بالقيمومة المطلقة لمدرسة أهل البيت، وقد أخذت أصول هذا الاتجاه الثاني تتكامل بالتدريج، حتّى كان القرن الثاني فتكاملت أصوله، ومثلّث مدرسة متكاملة يمكن أن نعطيها . من حيث جوهر افتراقها عن مدرسة أهل البيت . عنوان مدرسة الصحابة.

والتشيع هو الذي يمثل الاتجاه الأول سواء في مجال الفكر أو السياسة، فالائمة من أهل البيت (ع) هم القيّمون على الرسالة وعلى مسيرتها.

الصفحة 8

غير أن هناك تصوراً شائعاً يقول: إنّ التشيعّ ذو منطلق سياسي خالص.

والتشيع في بدايته التأريخيةرأى في مسألة سياسية محضة يتلخص بالأيمان بأحقية علي بن أبي طالب (ع) بالحكم.

فهو إذن سياسي النشأة، ومن هنا تعتبر كل المواقف والتصورات الفكرية التي احتواها التشيع فيما بعد دخائل واعواض على جوهر التشيع، التشيع . في منطق هذا القول . لا يمثل مدرسة فكرية أصيلة، وإنّما الظروف والأحداث، وطبيعة الوضع السياسي هي التي أملت على العقلية الشيعية من الأفكار والتصورات ما يناسب تلك المرحلة، ويتلائم مع طبيعة الوضع السياسي، وبتراكم هذه التصورات، وضَمّ بعضها إلى بعض، استطاع التشيع أن يكونّ له استقلالية فكرية.

انّ مفهوم العصمة، ومفهوم التقية، ومفهوم الغَيبة، ومفاهيم أخرى التزم بها الشيعة لم تكن الارّدود افعال تعكس صورة الظروف الحرجة والرهيبة التي عاشها الشيعة وجملة منها افكار مستوردة من اتجاهات أُخرى غير اسلامية!! وهذا المجموع الخليط هو الذي كوّن التشيع في جانبه الاعتقادي الفكري. أما بالأساس فليس التشيع سوى موقف سياسي وانّما " تكونت هذه العقائد في ظل إضطهاد سياسي وفكري "[1].

وما يهمنا في هذا التصور سؤالان:

أولا: هل صحيح ان التشيّع سياسي النشأة؟

ثانياً: وهل صحيح ان التأخر الزمني لظهور جملة من الأفكار والتصورات دليل على عدم اصالة المذهب، وعلى عدم وجود وحدة مدرسيّة متكاملة ومتناسقة مع أصولها لديه!

1- نظرية الامامة، احمد محمود صبحي: 503.

فقد لوحظ من ناحية ان البداية التأريخية للتشيع كانت ذات صلة بالجانب السياسي كما لوحظ من ناحية اخرى ان مجموع التصورات والمعتقدات الشيعية ظهرت في فترة متأخرة. ولعله إلى نهاية القرن الأول للهجرة لم يكن التشيع يمثّل مدرسة فكرية متميّزة، ولم يكن أكثر من حركة سياسية!

التشيّع إتجاه فكري وسياسي:

الحقيقة أن التشيع لم يكن . حتّى في بدايته التأريخية . اتجاهاً سياسياً بمقدار ما هو اتجاه فكري في فهم الإسلام عموماً.

والتشيع في نهايته كما هو في بدايته، وفي حاضره كما هو في ماضيه، يعني الولاء الفكري والسياسي لأهل البيت، والايمان بزعامتهم في المجالين.

ومنذ ظهر التشيع كان يحمل هذا المحتوى وهذا المدلول.

ورغم انّ الجانب السياسي فيه كان هو البارز في الأعصار الأولى للتشيع من الامام علي (ع) .وحتّى الامام الحسين (ع) الاّ ان ذلك لا يدلل على ان التشيع لا يتجاوز القضية السياسية،ولا يحمل اصول المدرسة الفكرية.

انّ طبيعة المشكلة التي كان يعانيها الشيعة يومذاك هي التي أدت إلى هذه الظاهرة: ظاهرة بروز الجانب السياسي وتغطيته على الجانب الفكري فالشيعة كانوا يواجهون مشكلة ابتعاد الحكم عنهم واستلاب السلطة من أيديهم، وفي رأي الشيعة تعتبر هذه

القضية بالذات من أهم ما يتعين توجيه إهتمامهم إليه. ولذا فأنهم في الوقت الذي دعوا إلى الامام علي (ع) سياسياً آمنوا بزعامته وزعامة أهل البيت (ع) عموماً في المجال الفكري ودعوا إليها أيضاً.

غير ان المرحلة لمّا لم تشهد ظهور مدارس فكرية مختلفة، لم يكن هناك من المبررات ما يدعو لظهور الشيعة بشكل تكتل مدرسي مستقل.

ومن هنا كان الجانب السياسي للقضية هو البارز.

كما انّ رجال الشيعة الاقدمين أمثال أبي ذر، وسلمان، وعمّار، كانوا هم طليعة صحابة الرسول (ص) والمنقطعين إليه، وهم لذلك على مستوى كبير من اللياقة والكفاءة العلمية مما يساعد على ظهور الارتباط السياسي اكثر من ظهور الارتباط العلمي بالامام علي (ع).

ورغم كل ذلك يبدو للملاحظ تأريخياً وجود صلات علمية خاصة بين علي (ع) وشيعته، كما يلاحظ وجود وحدة فكرية متميّزة لرجال الشيعة.

الحركة التكاملية في المذهب الشيعي:

وأما بصدد السؤال الثاني عن التأخر الزمني لظهور بعض الأفكار في المذهب الشيعي ففي البداية لابدّ من التفرقة بين ظاهرتين:

ظاهرة تمذهب الحركة.

وظاهرة تكامل المذهب.

في الظاهرة الاولى نفترض انّا نواجه حركة سياسية وذات أهداف وأصول لا تتجاوز الأفق السياسي، لكن هذه الحركة وفي ظل ظروف معيّنة تتضخم وتنمو على مرّ التأريخ. مستعيرة افكار وتصورات غيرها، ومتجاوزة لأفقها السياسي، وتشكّل من خلال مجموع تلك الاستعارات والاضافات مذهباً في الفكر والسياسة والقانون والاجتماع...

وهنا تنقلب الحركة السياسية إلى مذهب شمولي مستوعب.

وقد شهد التأريخ نماذج من هذه الحركات، وقد تكون حركة الخوارج خير مثال لهذه الظاهرة فلم تكن حركة الخوارج في بدايتها اكثر من حركة سياسية تنادي بالخروج على الامام علي (ع).

غير أن هذه الحركة بدأت بالتدريج ترسم نفسها ضمن صيغ فكرية، والتزامات فقهية، ميزتها عن سائر المدارس المعاصرة.

فالحركة السياسية تمذهبت، بينما هي في الأصل سياسية خالصة. أما في الظاهرة الثانية فنفترض أنّا نواجه منذ البداية مذهباً يعتمد اصولا معينة تميّزه عن غيره، وعبر التأريخ وحسب الحاجات، تتوالد الأصول، وتجيب على كلّ الأسئلة

المطروحة، وتملأ كافة الجوانب وهنا سوف يتسع المذهب فكرياً بالطبع وحول كل سؤال سيكون جواباً، وفي كل مسألة له رأى، الاّ انهّ ليس شيء ٌمن الاجابات والآراء مستوردا وًمستعارا. وًانما ٌمتولدا عنً الاصول الفكرية للمذهب ومنسجما معهًا.

إذن فالمذهب هنا يتكامل، ويتشعّب ويبني اطاره التفصيلي تدريجياً. والحقيقة انّ هذه ظاهرة طبيعية وحتمية لكل مذهب.

والتوّج هنا في الأفكار والتصورّات والاجابات على الاسئلة المطروحة في كل مرحلة، هذا التوجّ لا يخل بوّحدة المذهب، واعتباره مدرسة فكرية متناسقة ومتماسكة.

وعلى هذا الضوء يجب أن ندرس التشيع.

فهل هو حركة سياسيّة تمذهبت؟

أو أنه مذهب تكامل حسب حاجات كل مرحلة مرحلة من تأريخه، كما هو ظاهرة طبيعية وحتمية لكل مذهب، حتّى الإسلام نفسه؟

الشيء الذي يصح هو ذاك...

فمنذ كان التشيع، ومنذ ولد، كان يحمل اصوله الفكرية المتميّزة.

فهو يعتمد على قاعدةواحدة ميّزته عن سائر المذاهب، وهي امامة أهل البيت (ع)، واعتبارهم المصدر الأكمل والأتم في أخذ معالم الشريعة وتصوراتها، ومن هذه القاعدة تفرعت كل التفاصيل التي احتواها المذهب الشيعي فيما بعد.

ومعنى ذلك ان المحتوى التفصيلي للمذهب لم يكن مجموعة استعارات وزوائد وردود أفعال نفسية، غير منسّقة في وحدة مذهبية متكاملة، بل الحقيقة ان

المحتوى التفصيلي للمذهب إنّما هو امتدادات وتفريعات عن القاعدة الأساس وهي امامة أهل البيت (ع).

فليس التشيع إذن اتجاهاً سياسياً فحسب.

كما ليس حركة سياسية تمذهبت تأريخياً.

وإنّما هو مذهب متكامل ذو اطروحة متميّزة في فهم الإسلام، وهكذا كان منذ بدايته التأريخية وحتىّ المرحلة المعاصرة.

الإمامة والوراثة:

ولكن ما معنى إمامة أهل البيت خاصة؟

وإذا كان الشيعة يؤمنون بطريقة (النص) فلماذا كان النص محصوراً في دائرة أهل البيت (ع) لا يتجاوزهم؟

إنّ بعض الباحثين حاول أن يفهم ذلك على أساس أنه التزام بقانون الوراثة في الحكم، فالامامة تنتقل من الأب إلى الابن على أساس التوارث، غير انّ الحقيقة شيء آخر.

فالنظرية الشيعية في الامامة لا تعترف بقانون الوراثة بعيداً عن ملاكات الامامة، وهي حينما تقرر امامة أهل البيت النبوي خاصة لا تأخذ بنظر الاعتبار الترابط النسبي بينهم وبين الرسول (ص) من دون أي تقييم موضوعي لأشخاص هؤلاء، وان

من الخطأ أن نفسّر النظرية الشيعية بهذه الطريقة.

انّ الامامة في الفهوم الشيعي قائمة على أساس الكفاءة، والقابلية سواء في استيعاب الرسالة أو درجة الاخلاص لها أو مستوى التفاعل والاندماج معها.

وعلى اساس هذا التقييم الموضوعي تسلسلت الامامة في البيت النبوي وكان النص لا يتجاوز هذه الدائرة.

حينما اعلن الرسول (ص) عن استخلاف علي بعده، لم يكن ينظر للترابط

النسبي أو المصاهرة بينه وبين علي (ع).

لم يكن ينظر لسوى القابليات والمؤهلات التي اجتمعت في الامام علي (ع) ورشحته لقيادة التجربة الإسلاميّة بعد الرسول (ص).

لم يقل أن علياً صهري، أو ابن عمّي، إنمّا كان يشيد بالعظمة، والاخلاص والاستيعاب، وسائر المؤهلات في علي (ع).

انّ علياً مع الحق والحق مع علي.

وانه الايمان كلّه.

وانه يقاتل على التأويل كما يقاتل على التنزيل.

وانه باب مدينة علم الرسول (ص).

إلى آخر ما شهدت به النصوص النبوية.

انّ علياً هو الرجل الوحيد بعد النبي (ص) الذي لم يتدنسَّ بالشرك واخلاقيات الشرك، وهو الرجل الوحيد الذي لم تخالط نفسه نزعة من نزعات الجاهلية، وهو الوحيد الذي كان له من رسول الله (ص) مجلس في الليل ومجلس في النهار، يجيبه إذا سأل، ويبتدؤه إذا نفدت مسائله، ومن هنا كان علي بشهادة الجميع أقضى الناس، وأفقه الناس، وأعلمهم بالقرآن والسنّة.

وحينما استخلف الرسول (ص) عترته جميعاً كان يؤكد نفس المفهوم أيضاً، فقد اوضح للأمة انّ المعيار هو درجة العلاقة مع الرسالة، مع القرآن، ليس شيئاً آخر كان يقول:

" انّي تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتىّ يردا علي الحوض " الترابط مع القرآن، والترابط الدائم مع الرسالة، هو الذي رشح اشخاص الائمة من أهل البيت للامامة.

وقد كان الوحي ينزل " إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

ويطهركم تطهيراً ".

ولو تجاوزنا هذه النصوص، والشهادات، وانتقلنا إلى تراجم الائمة من أهل البيت فماذا نجد؟

كانوا اكثر الناس اخلاصاً للرسالة، وفهماً لها واستعدادا ًللتضحية من أجلها، ومن هنا كانوا ائمة وقادة، وحدهم لا سواهم.

لأن قيادة الرسالة تحتاج إلى قمة في الوعي، والاخلاص، والطهارة.

وهذه القمميّة لا يبلغها من عاش الانحراف، وتأثّر بمفاهيمه وأطره وقيمه، ولا يبلغهامن أخذ الرسالة من أفواه الناس وآراء الناس ومن غير مصدرها الحقيقي.

ونحن نعلم ان الأمةَ بعد الرسول (ص) شهدت الواناً من الانحراف، في فهم القيم الدينية واستيعابها أو في فهم التشريع الإسلامي عموماً ومثل هذا الوضع لا يمكنه ان ينتج احسن منه، ويخلق رجالا اكثر استيعاباً وفهماً واخلاصا للرسالة، وهم لم يفهموا الرسالة الاّ عن طريق الانحراف ومن هنا اتجهت العناية النبوية لخلق القيادات الكفوءة والنقيّة والمملوءة علماً واخلاصاً وتضحية في داخل البيت النبوي، في بيت الامام علي (ع) حيث مصدر العلم الحقيقي والشامل.

وحيث التجسيد والاستيعاب التام لقيم الرسالة.

وحيث البعد عن الانحراف وانعكاسات الانحراف.

وهكذا تسلسلت الامامة إلى الحسن والحسين (عليهما السلام). ثم إلى بقية الأئمة الاثني عشر إعتماداً على خاصية الاستيعاب للرسالة، لا على اساس التوارث، ومن يعرف الائمة من أهل البيت يعرف حقيقة ما نقول.

فهناك الغزارة في العلم أقصى ما تكون الغزارة، حتّى ليجلس العلماء عندهم صغاراً. وفي ذات الوقت لا تجد أن أحداً من هؤلاء الائمة أخذ العلم عن أحد سوى البيت النبوي.

وهناك الغزارة في هضم الرسالة وتجسيدها، والالتحام معها حتّى لا تجد لهم هفوة، أو انحراف عن خط الرسالة في لحظة من لحظات حياتهم.

وهناك التضحية والفداء، والتفاني المطلق في سبيل مصلحة الرسالة كما ان هناك أقصى درجات الوعي لأساليب العمل.

ومن ذاك كانوا أئمة باعتراف جميع المسلمين.

(2)

نشأة التشيع

متى نشأ التشيع؟

هل في عصر الرسول (ص)؟

أم في عصر الصحابة؟

أم في عصور متأخرة عن ذلك؟

والتشيع الذي نبحث عن نشأته ليس هو الدعوة لـ (علي) والانتماء له سياسياً، فقد وجد ذلك بعد عصر الرسول (ص) مباشرة إنما التشيّع هو (الايمان بالنص).

هو الايمان بأن الرسول (ص) نص على إمامة علي واهل البيت عموماً، الامامة في المجال السياسي والمجال الفكري العلمي.

هذا هو التشيع. فالسؤال إذن يجب ان يطرح بهذه الصياغة: متى انبثقت فكرة النص؟ ومتى ظهر الالتزام بها؟

والذين دعوا لعلي (ع) من الصحابة، أمثال أبي ذر، وسلمان وعمار والمقداد هؤلاء هل كانوا يؤمنون بالنص، وينطلقون من هذه النظرية؟ أم انهم آمنوا بعلي لمؤهلاته المتميزة النادرة، لسبقه في الإسلام وقربه من الرسول وحجم استيعابه للرسالة.

فهناك قضية فرغ عنها الباحثون وهي: ان اتجاهاً عميقاً وعريقاً ظهر بعد وفاة الرسول (ص) ينتمي إلى علي، ويدعو لأمامته، وكان ممثلوا هذا الاتجاه من خيار الصحابة وكبارهم، وقد ناهضو في البداية حكم ابي بكر، وامتنعوا عن البيعة له. غير ان هذا السؤال هو: هل كان هذا الاتجاه يؤمن بفكرة النص، ليعتبر هو البداية التأريخية للتشيع؟ هناك من يذهب . بالطبع . إلى ان فكرة النص لم تكن معروفة لدى جيل الصحابة، وإنّما هي فكرة اصطنعها شيعة علي في مرحلة متأخرة وفي ظل ظروف سياسية وفكرية معيّنة.

في البداية لم تكن فكرة النص.

لم يكن سوى اشخاص دعوا لعلي على أساس قابلياته الشخصية، وقربه من الرسول (ص) وسبقه إلى الإسلام.

واستمرت الحركة لعشرات السنين، وهي لا تتجاوز هذا الأفق غير ان الشيعة من أجل تحصين حركتهم واسباغها طابع الشرعية، اصطنعوا فكرة النص، وتفرعوا بها. بينما لم يكن لهذه الفكرة اي اساس من قبل، وفي ضوء هذا التصور يفقد التشيع شرعيته وحقانيته، لانه لا نص من الرسول ولا استخلاف، إنّما هي مزاعم صنعها رجال متأخرون. هذا الرأي يذهب إليه باحثون من أهل السّنة.

أما الشيعة فأنهم يؤكدون باصرار ممثال ان الدعوة لعلي منذ ان بدأت كانت تؤمن بالنص، وتعتمد عليه وان الصحابة الذين التزموا جانب علي بعد الرسول (ص) هم الروّاد الأوائل للتشيع.

ومنذ كانت الحركة كان الايمان بالنص.

فهي فكرة ليست مستحدثة، أو مصطنعة، أو دخيلة على أصل الحركة. وعلى ذلك يصح القول إنّ البداية التأريخية للتشيع بوصفه مذهباً ونظرية كانت في عصر الرسول (ص)، وتحوّل إلى ممارسة سياسية في عصر الصحابة كما اصطلح عليه أو عصر ما بعد الرسول مباشرة.

والرأي الأول مسؤول عن تحديد الفترة التي ظهرت فيها فكرة النص. والباحثون من اهل السنة لا يتفقون على تحديد معيّن

فبينما يرى بعضهم انّ هذه الفكرة ظهرت أيام فتنة عثمان وعلى يد عبد الله بن سبأ، يرى آخرون أنها ظهرت بعد التحكيم وبعد حركة الخوارج، وبينما يرى قسمٌ ثالث ان التشيع بشكله الأخير نشأ بعد مقتل الحسين (ع).

وعلى اي حال فهذه آراء سنستعرضها فيما بعد ان شاء الله، ونعرف مداها من الصحة.

كما انّ هذه الآراء ستبقى بلا اساس موضوعي إذا اكتشفنا وجود فكرة النص لدى جيل الصحابة أنفسهم والتزم بها المنتصرون لعلي منهم، فانه يصبح بلا معنى أن نبحث عن فترة متأخرة نحدّد ظهور فكرة النص فيها.

وعادة يمكن الاستدلال على هذه الحقيقة بما تحويه كتب التأريخ والحديث من نصوص الرسول (ص) في امامة علي (ع) واهل البيت عموماً. فأن ذلك شاهد على ان فكرة النص ليست مختلَقَةَ، ومتأخرة الحدوث. وقد تكلفت الكتب المذهبية هذا الجانب بالذات فاستعرضت النصوص المدوَّنة في كتب التأريخ والحديث لأهل السنّة أنفسهم، وحاسبتها في سندها وفي دلالتها فكانت من ناحية السند متواترة وقطعية ومن ناحية دلالتها واضحة.

غير انا هنا نريد أن نعتمد طريقة البحث التأريخي.

فما هو الدليل التأريخي على وجود فكرة النص لدى جيل الصحابة وخاصة

من دعا منهم لعلي وانتصر له؟

أنا اعتقد انّ دراسة الحركة الشيعية الداعية لعلي بعد الرسول (ص) هي التي تقدّم لنا هذا الدليل، وتؤكد لنا بكل وضوح ان الحركة كانت مؤمنة بالنص ومنطلقة من هذا الأساس.

سندرس هنا:

أ . منطق الحركة.

ب . طبيعة الحركة.

ونرى من خلال هذه الدراسة وجود فكرة النص لدى جيل الصحابة.

أ . منطق الحركة:

ما هو منطق الحركة؟

وماذا يقول الدعاة للامام علي (ع)؟

والإمام علي (ع) بالخصوص حينما كان يرشح نفسه للحكم ماذا كان يقول؟ وأي مفهوم كان يعطي لهذا الترشيح؟ هل ذكرت هنا فكرة النص والاستخلاف؟

وهل ذكرت فكرة الاختيار الإلهي الذي يؤمن به الشيعة في امامة علي واهل البيت؟

الحقيقة ان هناك تصريحات عديدة لرجال الحركة تضمنت فكرة النص، والاختيار الإلهي، مما لا يدع اي مجال للشك في ان الدعوة لعلي لم تكن رأياً شخصياً رآه بعض الصحابة، وانمّا الرسول (ص) هو الذي استخلف علياً واهل البيت (ع).

انظروا...

ذات مرّة تحاور (ابن عباس) .وهو الناطق باسم الشيعة يوم ذاك . مع الخليفة الثاني، وتذاكروا موضوع الخلافة.

قال عمر: ان قريشاً اختارت لأنفسها فاصابت ووفقت.

فأجاب (ابن عباس): لو أن قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عزّ وجلّ لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود... [1].

ولأبي ذر موقف مماثل، فقد كان يقول:

" أيتها الأمة المتحيّرة بعد نبيّها أما لو قدمتّم من قدم الله، وأخرتمّ من أخر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في اهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم ".

ما معنى الاختيار الالهي الذي أشار له ابن عباس؟

وما معنى التقديم الالهي الذي ذكره ابوذر إذا كانت دعوتهم رأياً شخصياً؟

إنّ الاختيار الالهي هو الذي نطق عنه الرسول (ص) حينما استخلف علياً وهو الذي كان يقصده الشيعة. وكان سلمان الفارسي يقول:

" بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين، والائتمام بعلي بن أبي طالب والموالاة له " [2].

وكان ابو سعيد الخدري يقول: " أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة. ولما سئل عن الأربع، قال: الصلاة والزكاة والصوم والحج. فقيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب " [3].

وهناك محاورة فيها تصريح بفكرة النص، جرت بين عمر وابن عباس.

لقد سأله عمر يوماً عن علي،

1- عبد الله بن سبأ: 76.

2- خطط الشام.

3- بحار الانوار: ج 43.

هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قال: نعم.

قال: أزعم انّ رسول الله نصّ عليه؟

قال ابن عباس: قلت: وأريدك، سألت ابي عمّا يدعي . من نص رسول الله عليه بالخلافة . فقال: صدق، فقال عمر: كان من رسول الله في أمر ذرو، من قول لا يثبت حجة، ولا يقطع عذراً، ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعته من ذلك [1].

إذن فالقضية قضية نص، واستخلاف، هكذا كان يطرحها علي والعباس وسائر رجال الشيعة. وهكذا فهمت عنهم حتّى أن عمر يسأل: أزعم ان رسول الله (ص) نصَّ عليه؟! وانه ليعلم بهذا الزعم!

وحتّى الذين امتنعوا عن بيعة أبي بكر من غير قريش، والذين رفضوا اعطاء الزكاة الاّ لعلي، هؤلاء أيضا كانوا ينطلقون من فكرة النص عليه بالخلافة من قبل رسول الله (ص).

ففي حوار طويل جرى بين مبعوث الخليفة وبين الحارث . من سادات بني ذهل . فسمع عبد الله بن عجرفة وهو يرد على مبعوث الخليفة حينما دعاه لبيعة أبي بكر من حيث قد اختاره المهاجرون والانصار.

قال عبد الله (وما المهاجرون والانصار بأنظر لهذه الأمة من نبيّها محمد (ص) وآله) [2].

فاختيار المهاجرين والأنصار لا يقدّم على اختيار الرسول (ص) وما هم أحقّ منه بالاختيار ولا أعرف، وقد اختار (ص) علياً للخلافة كما أن كثيراً جدا ً من

1- المراجعات: المراجعة 106.

2- بن سبأ، 2: 294 ، عن معجم البلدان مادة حضرموت.

النصوص ورد فيها التعبير بـ (الوصي) و (ولي العهد) على ألسنة رجال الحركة وخطبائهم وشعرائهم [1].

ومثل هذا التعبير واضح جداً في الدلالة على فكرة النص والاستخلاف وانطلاق الشيعة من هذا المنطلق. وفي خطبة الزهراء (ع) نجد فكرة النص موجودة أيضاً.

" تالله لو تكافؤا على زمام نبذه إليه رسول الله (ص) لاعتقله وسار بهم سيراً سجحاً " [2].

فهي ترى ان الخلافة زمام نبذه إليه رسول الله (ص) وليست مجرد رأي وترجيح أو عصبية. انها قضية استخلاف، زمام أُعطي لعلي، ليسير بالامة وبالرسالة بعد الرسول. على ان مما يلاحظ بهذا الصدد ان علياً لم يكن يدعو لنفسه خاصة، إنمّا كان يرى الامامة في أهل البيت، هو ومن بعده من الأئمة.

كان يقول:

" يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم، ما كان منّا القارئ... " [3].

وكان يقول:

" لا يقاس بآل محمد (ص) من هذه الأمة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين، اليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية... " [4].

1- جمع العلامة شرف الدين في كتاب (المراجعات) عدداً كبيراً من تلك النصوص.

2- بحار الانوار: ج 43.

3- ابن سبأ، 1: 71.

4- الخطبة 2، ج 1 من النهج 250.

وهكذا كان في رأي رجال التشيع كلهم.

بماذا نفسر ذلك؟

وإذا كان علي يرى انّه الأفضل، والاليق بالحكم. دونما نص من رسول الله (ص). وكان يرى ذلك شيعته وانصاره فما معنى الدعوة لأهل البيت عموماً وحصر الولاية فيهم؟

انّ التفسير الوحيد لذلك هو ان هذه الدعوة لم تكن رأياً شخصياً رآه بعض الصحابة في علي، إنما النصوص النبوية هي التي ألزمتهم، ووضعت لهم نظريتهم في الخلافة. والنصوص النبوية لا تختص بعلي، إنّما كانت تذكر أهل البيت أيضاً.

فقد كان رسول الله (ص) يقول: " انّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً " ونتيجة هذا العَرض: انّ البيانات والتصريحات التي ادلى بها الشيعة يومذاك صريحة وواضحة في تصورهم للأمامة، وأنها مسألة نص واستخلاف. وليست فكرة النص مختلقة وطارئة على الحركة.

ب . طبيعة الحركة:

وكما أمكن الاستشهاد بمنطق الحركة، وتصريحات رجالها على وجود فكرة النص فأن طبيعة الحركة شاهد آخر على وجود هذه الفكرة، وعلى أن التحرك كان مستنداً إلى الايمان بالنص، والاختيار المسبق.

وبودي أن أشير في ا لبداية إلى ان كثيراً من المؤرخين والباحثين حاولوا تناسي أبعاد هذه الحركة، وتغطيتها، والحرص على إبرازها بشكل بسيط وهزيل

للغاية، مما يسلب عنها كل مداليلها الحقيقية. حتّى زعم بعضهم:

" انّ علياً كان جالساً في داره وعليه قميص ليس معه إزار ولا رداء فجاءه من أنبأه بأن أبا بكر قد جلس للبيعة، وان الناس يبايعونه، فأسرع علي إلى المسجد وأعجله السرع عن أن يتخذ إزاره ورداءه، ومضى حتّى بايع أبابكر ثم جلس وأرسل من جاءه بثوبه فتجلّله... "[1].

يقول طه حسين:

" فغضبت فاطمة وشاركها زوجها في غضبها وتأخرت من أجل ذلك بيعة علي. رحمه الله. لأبي بكر، على أن فاطمة. رحمها الله. لم تعمّر بل توفيت بعد أبيها بستة أشهر، فأقبل عليّ فبايع كما بايع الناس " وبهذا تصبح قضية علي فارغة من أي مدلول، وكأنها لم تكن أخطر وأهم قضية حدثت في تأريخ الإسلام.

ونحن سنؤجل اعطاء الصورة التفصيلية، والابعاد الحقيقية للحركة، إلى فصل آخر.

أما هنا فنحاول ان نأخذ صورتها ولو بنحو من الاجمال.

من همرجال الحركة الذين اصرّوا على إمامة الامام علي (ع) بعدرسول الله (ص)؟ كم هو عددهم؟ ما هو ثقلهم؟

المؤرخون يذكرون منهم أباذر، وعمار، وسلمان، والمقداد، والزبير، وحذيفة بن اليمان، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب، وبني هاشم جميعاً. ويذكرون غير ذلك أيضاً فيما عدا علي والزهراء (س) جماعة من المهاجرين وجماعة من الأنصار.

سلمان! من هو سلمان؟

اختلف المهاجرون والأنصار فيه، كل يقول سلمان منّا، لكن رسول الله (ص)

1- نقله طه حسين في كتاب الشيخان: 38.

قال: " سلمان منّا أهل البيت " وسلمان هذا هوالذي تتحدث عنه عائشة بقولها: " كان لسلمان مجلس عندرسول الله (ص) ينفرد به بالليل ".

وعمّار! من هو عمار؟

هو الرجل الذي ملئ ايماناً إلى حشاشه، وتقتله الفئة الباغية، كما شهد بذلك الرسول (ص).

وأبوذر! من هو أبوذر؟

صوت الحق المدوي، الذي لا يخاف في الله لومة لائم.

" ما أظلت الخضراء،ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر "[1] هكذا حدّث عنه الرسول (ص).

وحذيفة بن اليمان... صاحب سرّ رسول الله (ص) العارف بالمنافقين حتّى كان الخليفة الثاني يسأله عنهم، ويسأله عماّ إذا كان يعرف في نفسه . عمر . شيئاً من النفاق.

والمقداد...

أحد الأربعة الذين أمر الله بحبّهم،وأخبر ان الجنّة تشتاق لهم.

" انّ الله أمرني بحب أربعة من أصحابي،وأخبرني أنه يحبهُم... علي والمقداد وسلمان وابوذر "ولا أحدثك عن الباقين.

لا أُحدثك عن علي بعدما شهد فيه الرسول (ص) انه مع الحق والحق معه.

ولا أُحدثك عن الأهواء التي دعت لعلي وعارضت بيعة السقيفة. لا أُحدثك عنها بعدما قال فيها الرسول (ص): " فاطمة بضعة منّي، يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها ".

1- مرآة الاسلام، طه حسين: 114.

والأعراب الذين اتهمهم المؤرخون بالردة والارتداد....

انها لم تكن ردّة في قسم كبير منها، إنمّا كانت دعوة لعلي، ورفضا لًحكومة الخلافة!، كما كشف النقاب عن ذلك المحققوّن.

هؤلاء وغير هؤلاء هم الذين عارضوا أبابكر ودعوا لعلي.

وربما يكون جانب العدد غير مهمّ إذا لاحظنا مستوى رجال الحركة، إخلاصهم، عمق وجودهم الرسالي، صلتهم بالرسول (ص) وإشادته بهم.

اما طبيعة الحركة، وحجم المعارضة، ومستوى الاستعدادات، فرغم أن التأريخ كان شحيحاً في هذا المجال وكانت صدور المؤرخين لا تتسع لهذا الجانب، فإنّا نستطيع أن نوضح البعد الحقيقي للحركة.

فالمؤرخون يجمعون على انه تخلف عن بيعة أبي بكر جماعة من المهاجرين وجماعة من الأنصار ومنهم علي والزبير، تحصنوا في دار فاطمة ومعهما السلاح.

و " ان عمر جاء فناداهم وهم في دار علي فأبوا أن يخوجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده لتخوجن أو لأحرقنها على من فيها. قيل له: يا أبا حفص إن فيها فاطمة! قال: وإن " [1].

وفي رواية الطوي:

" أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فخوج عليه الزبير مصلتاً بالسيف فعثر فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه... " [2].

وتدل الروايات التأريخية على ان علياً كان مستعداً للقتال لو توفرّ له العدد

1- الامامة والسياسة، 1: 12.

2 – الطوي، 2: 443، 444، 446.

اللازم كان يقول: " لو وجدت أربعين ذوي عزم لناهضت القوم ".

وكان يقول: " وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء... " [1]، وكان يطوف على بيوت الأنصار ليلا ومعه فاطمة، يسألهم النصوة، وتسألهم فاطمة الانتصار له، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل....

والسؤال الآن هو:

بماذا نفسّر هذا الموقف من علي وشيعة علي؟

وما الذي سوّغ لهم التأهب للقتال؟

وحينما كان علي يدعو لنفسه على أي اساس كان يعتمد ليستبيح قتال الآخرين. هل هو النص؟

أو هو الأفضلية؟ أو هو الالتزام بقانون الوراثة في الحكم؟

انّ فرضاً واحداً هو الذي يستطيع أن يصحّح لنا معارضة علي (ع) ويضعها في إطارها الصحيح، وهذا الفرض هو الذي اضطرّ إلى قبوله المستشرقون ايضاً حينما قالوا:

" تدلنا أقدم الروايات على أن ادعاء علي بالخلافة لم يكن بنظر أصحابه وشيعته مجرد طموح سياسي، بل حق إلهي له " [2].

ومن هذا الاعتقاد كان علي يتحرك، ومستعداً للمناهضة.

أما القول بأن الدعوة لعلي كان رأياً شخصياً على أساس مزايا الامام، وصفاته الشخصية، فأن هذا القول يضع الامام وشيعته موضع الاتهام والأدانة لأن

1- نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية.

2- عقيدة الشيعة: 85 دونالدسن.

أفضلية علي لا تبيح لهم على الاطلاق الدخول مع سائر المسلمين في حرب وفرض رأيهم بالقوة والسيف.

وإذا كان هناك مجال للمعارضة والتأخر عن البيعة لأن مجيء أبي بكر إلى الحكم لم يكن عن طريق الشورى العامة. فأن ذلك لا يمكن أن يكون مبرراً شرعياً لامتشاق السيوف، واعلان الحرب والانتصار لعلي بهذا الاسلوب مادام أمر الخلافة شورى بين المسلمين، لهم أن يختاروا من شاؤا.

أما علي وشيعة علي فكانوا يتحدثون بغير هذا المنطق.

كانوا يرون ان الحكم للامام وحده، وبلا منازع، وأي محاولة لصرف الحكم عنه تعتبر غير شرعيّة، يجب مناهضتها، ان اختصاص الخلافة بالامام أمرٌ مفروغ عنه، بلا حاجة حتىّ إلى شورى. ولا مجال للاختيار، ويجب أن يصل الامام إلى حقهّ المفروض له وإن نازع المنازعون، وعلى اساس هذا الفهم كانوا لا يتحرجون من القتال لو وجدوا أملا بالنصر.

وهذا ما لا يمكن تفسيره بفرض آخر غير ايمانهم بالنص على الامام من قبل الرسول (ص).

ومن غير الصحيح ولا الممكن القول بأنهم دعوا لعلي بتصور أن الحكم وراثي فيجب ان لا يخرج من عشيرة الرسول (ص).

لأن هذا الفرض لا يفسّر لنا لماذا كانت الدعوة لعلي دون العباس وهو عمّ النبي، وأقرب إليه؟ ولماذا كان العباس نفسه يدعو لابن عمه ولا يدعو لنفسه؟

على ان هذا التصور لطبيعة الحكم في الإسلام واعتباره وراثياً لا يملك أي مستند شرعي، فكيف يصح افتراض ان علياً وسائر رجال الحركة التزموا به وهم الذين استوعبوا الإسلام، وتجردوا عن نزعات وتقاليد الجاهلية.

ولو كان رجال الحركة ممن يعيش رواسب الماضي، وطريقة التفكير القبلي، وتكمن في أعماقهم نزعات الجاهلية، لأمكن قبول هذا الفرض، أمّا وهم الطليعة

الواعية من أصحاب الرسول، والخيرة التي هضمت الإسلام. وجسَّدت قيمه ومفاهيمه، وانقلبت على العقلية القبلية البدائية الجاهلية، وعرفت لهذه الرسالة ربانيتها وتفوقها على سطحية الانسان في تفكيره فان من غير الممكن أن نقبل في حقّهم هذا الافتراض. على أنه فرض لا يدعمه أي دليل.

إنّما التفسير الوحيد الذي يمكن أن نفهم طبيعة الحركة على ضوءه هو الايمان بالنص المسبق والاختيار الالهي لحكومة الامام.

* * *

خلاصة الرأي:

ونخلص من البحث المتقدم. وفي ضوء دراسة منطق الحركة، وطبيعة الحركة بالنتيجة التالية:

انّ التشيع على مستوى النظرية كان الرسول (ص) هو واضع حجره الاساس، ويعتبر عصر الرسول (ص) هو عصر تأسيس النظرية الشيعية. أمّا التشيع بوصفه اتجاهاً وحركة فيصح القول انه ولد عقب وفاة الرسول مباشرة حيث ظهر اتجاهان، الاتجاه الموالي لأهل البيت والمؤمن بقيمومتهم على الرسالة، وإمامتهم في الأمة، والاتجاه الثاني لا يعترف بهذه الامامة والقيمومة وكانت بدايات كلتا الاتجاهين موجودة في زمن الرسول (ص).

وإذا انتهينا إلى هذا الرأي في نشأة التشيع فأننا سنواجه عدة أسئلة:

لماذا لم يحتج علي بالنصوص:

أولا: ما هو تفسير انحراف معظم الصحابة عن التشيع؟

ثانياً: لماذا لم ينهض علي ولم يقاتل إذا كانت الخلافة حقه الشرعي؟

ثالثاً: لماذا لم يحتج عليّ ولا شيعة علي بالنصوص النبوية التي تفيد إمامته؟

وسنوجي الاجابة على السؤال الأول والثاني إلى حين دراستنا للمرحلة الأولى من مراحل التشيع.

أما هنا فنجيب على السؤال الثالث، واضعين الاجابة في النقاط التالية:

أولا: ان كتب التأريخ والحديث الشيعية تذكر احتجاج الامام بالنصوص، كما وتروي احتجاج عدة من شيعته بها في الجامع النبوي.

ورغم ان ورود هذه الروايات في الكتب الشيعية لا يدعو إلى الثقة المطلقة بها من وجهة نظر الخصوم، ولا يكفي في الاعتماد عليها، الاّ أنه يدعو . لا أقل . إلى احتمال أن تكون المحاججات بالنصوص موجودة تأريخياً ثم أهملت عن عمد في كتب التأريخ التي دوّنتها أقلام غير شيعيّة كما نعتقده.

ثانياً: وفي الوقت الذي لم تذكر كتب التأريخ السنيّة الاحتجاج بالنص، نجدها لم تتعرض لذكر أي مناقشة ومكالمة جرت بين الامام والخلافة الحاكمة.

وهذا أمر يدعو إلى الشك في أمانة هذه الكتب في هذا المجال، لأن من غير المحتمل ولا المعقول أن يمتنع الامام وشيعته عن البيعة، ويتحصنون بدار فاطمة، وتهددهم القوى الحاكمة بأحراق الدار، ثم يخرجون منها قهراً، ويؤتى بعلي إلى الجامع، ويرغم علي على البيعة، ثم لا يبايع إلى ستة أشهر، رغم الضغط والاصرار والارهاب، وفي كل ذلك يبقى علي صامتاً لا يتكلم بشيء ولا يدلّل على وجهة نظره، ولا يدعم رأيه بحجة، بينما تدعو كل الأمور لأن يتكلم وأن يناقش وأن يؤيد رأيه، ويدعم قوله.

ان أحداً لا يستطيع التصديق بأن علياً ظل صامتا ستة أشهر، إذن فيم المعارضة والامتناع عن البيعة؟ ولماذا؟ وكيف يطلب من الناس تأييده وتصديقه وهو لا يدفع الحجة بالحجة،ولا يقمع البرهان بالبرهان؟ وحينما أُوتي به إلى الجامع،وأُرغم على البيعة، ماذا قيل له؟ وماذا قال؟

انّ كتب التأريخ السنية هنا أيضا ساكتة!

مع أن من البديهي بحسب منطق الأحوال والمناسبات ان كلاماً طويلا وحاداً جرى بين الامام وقوى الحكم، لكن كتب التأريخ أهملت ذلك.

لقد كان من الممكن والمعقول الثقة بكتب التأريخ السنيّة والاعتقاد

بموضوعيتها لو أنها لم تذكر فقط الاحتجاج بالنصوص، فقد نقول انه لا وجود لهذا الاحتجاج، أما وهي تهمل ذكر أي مكالمة ومناقشة جرت بين الامام وقوى الحكم مع أن ذلك أمرٌ غير محتمل في نفسه فانه لا يبقى حينئذ مجال للثقة باستيعاب هذه الكتب للحقائق التاريخية وموضوعيتها في النقل.

ثالثاً: على ان هناك حقيقة ثابتة باعتراف علماء ومؤرخي أهل السنة أنفسهم وهي حقيقة اجتناب كتب التاريخ السنيّ عن ذكر ما جرى بين الصحابة من المشاحنات والمنازعات ومحاولة مسحه من صفحة التأريخ، حتّى قال (ابن حجر):

" صرّح أئمتنا وغيرهم في الأصول بأنه يجب الامساك عمّا شجر بين الصحابة رضي الله عنهم... "[1].

كما قال الامام الغزالي:

"ويحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكاياته وما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم، فأنه يهيج على بغض الصحابة والطعن فيهم... "[2].

وعلى هذا الأساس جرت طريقتهم في كتابة التأريخ.

فنجد الطبري مثلا حين يتعرض لذكر حوادث سنة 30 للهجرة يقول:

"وفي هذه السنة أعني سنة 30 كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية وإشخاص معاوية ايّاه منها إليها، أمور كثيرة كرهت ذكرها ".

ويقول: "رووا في سبب ذلك أشياء كثيرة وأموراً شنيعة، كرهت

1- هذا النص والنصوص الآتية بعده نقلها العلامة الاميني عن مصادرها في كتابه الغدير.

2 – احياء علوم الدين، الغزالي.

ذكرها... "[1].

وقد جرى على طريقته سائر المؤرخين حتّى صرّح ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) بأنه لا يزيد على ما ذكره

الطوي فيما متعلق بأحوال الصحابة.

قال: " فلمّا فرغت منه . تاريخ الطوي . أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعته وأظفته إلى ما نقلته من تاريخ الطوي ما ليس فيه ووضعت كل شيء منها موضعه الاّ ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله (ص) فانّي لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئاً الاّ ما فيه زيادة بيان أو اسم انسان أو ما لا يطعن على أحد منهم في نقله ".

وفي هذا المعنى أيضاً قال ابن خلدون في مقدمته:

هذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية وما كان فيها من الردّة والفتوحات والحروب ثم الاتفاق والجماعة أو ردتها ملخصةً عيونها ومجامعها من كتب محمد بن جرير الطوي وهو تاريخه الكبير فانه أوثق مارأيناه في ذلك، وأبعد عن المطاعن والشبه في كبار الأمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين ".

وتمشياً مع هذه الطريقة حمل الكثير على ابن قتيبة، وطعنوا فيه أشدّ الطعن لأنه ذكر قليلا مما جرى بين الصحابة.

فقد قال فيه ابن العربي في العواصم:

" ومن أشد شيء على الناس جاهل عاقل أو مبتدع محتال، فأما الجاهل فهو إبن قتيبة فلم يبق ولم يذر للصحابة رسماً في كتاب الامامة والسياسة إن صح عنه جميع ما فيه ".

كما قال فيه ابن حجر في الصواعق:

1- انظر تاريخ الطبري، حوادث سنة 30 للهجرة.

" كان ينبغي له ان لا يذكر تلك الظواهر، فإن أبى الاّ ذكرها فليبيّن جريانها على قواعد أهل السنة حتىّ لا يتمسك مبتدع أو جاهل بها ".

إذن فهناك ظاهرة تعم معظم كتب التأريخ والحديث لأهل السنّة وهي عدم التصدّي بالذكر لكل ما من شأنه الكشف عن مخالفات الصحابة واعتراضاتهم ومنازعاتهم، والاهمال عن عمد لكل ما يصطدم مع المعتقد السنّي في الامامة والصحابة.

وجرياً على هذه الطريقة لا يكون من المستبعد . من وجهة النظر الموضوعية في دراسة التاريخ . أن الامام علي (ع) وشيعته قد جهروا بالنص، وحاججوا به وابرزوه في الصراع الدائر حول الامامة الاّ ان أقلام المؤرخين . أو بالاحرى كثير من المؤرخين . هي التي أعرضت عنه عمداً. وعلى هذا الأساس أيضاً لا يكون عدم تعرض المؤرخين لاحتجاج الامام وشيعته بالنصوص داعياً للشك في وجودها واحتجاج الامام بها، بعدما أوردتها كتب الشيعة ودلّت عليها قرائن الأحداث السياسية.

رابعاً: وزيادة على الملاحظات السابقة، فان احتجاج الامام (ع) بالنص قد سجّل في عدد من كتب التاريخ والحديث لأهل السنّة، وليس من الصحيح القول بأن كتب التأريخ والحديث السنّي فارغة تماماً من ذلك أيضا [1].

آراء أُخرى في نشأة التشيع:

وهناك عدد من الباحثين ينكر أن يكون التشيع قد نشأ على عهد الرسول (ص)، وظهر عملياً وبشكل حركي بعد وفاته.

وهؤلاء بالطبع مسؤولون عن أمرين:

1- راجع في ذلك مجموعة المصادر السنّية التي نقل عنها السيد شرف الدين في مراجعاته.

أولا: الاجابة على الواهين التأريخية الدالة على وجود فكرة التشيع في عصر الرسول (ص)، وتبنّي مجموعة من الصحابة لها فيما بعد وفاته، كما أسلفنا الحديث عنه مفصلا.

فكيف يفسرون التفاف جملة من الصحابة بالامام، واستعدادهم للفداء والتضحية واحداث أخطر معركة في الإسلام؟

وكيف يفسّرون الايمان بالنص الذي عبّرت عنه جملة كثيرة من كلماتهم إن لم يكن هذا هوالتشيع؟ انه ما لم تناقش تلك القرائن والواهين التاريخية، يكون بلا مبرر وبعيداً عن الصواب تماماً إفتراض بداية اخُرى للتشيع، ومحاولة إقامة القرائن عليها.

والذي بدا لي من خلال تتبع كتابات هؤلاء الباحثين، أنهم إنصرفوا لاكتشاف بداية تاريخية متأخرة كان المفروض عليهم قبل ذلك نقد الأدلة التي يستند إليهارأي الشيعة، ثم البحث في اكتشاف بداية أخرى.

ثانياً: ويكون من مسؤولية هؤلاء الباحثين ثانياً اكتشاف البداية التاريخية للتشيع، بعدرفض أن يكون التشيع قد وجد نظرياً على عهد الرسول وعملياً بعده مباشرة.

وفي هذا الصدد وجدت عدة آراء لتحديد البداية التاريخية، نستعرض هنا أهمها.

الرأي الأول: أيام خلافة عثمان بن عفان:

في ضوء هذا الرأي تعتبر الاضطرابات أيام عثمان هي الأرض التي غرست فيها بذرة التشيع، على يد عبد الله بن سبأ.

فالتشيع بمعنى الايمان بالنص على علي، واستخلافه بوصية من الرسول لم يظهر في عهد أبي بكر، ولا في عهد عمر إنّما كانت الدعوة إليه من قبل أصحابه

تعبيراً عنرأي سياسي شخصي قائم على أساس الايمان بأفضليته، وكانت فترة حكم عثمان، وحدوث الاضطرابات، هي الفترة التي ظهرت فيها فكرة النص والوصاية لعلي، على يدرجل اسمه عبد الله بن سبأ.

أمّا من هو عبد الله بن سبأ؟ الذي يفترض في هذا الرأي أنه واضع التشيع ومؤسسه.

اصحاب هذا الرأي يذكرون انه شخص يهودي، أظهر الإسلام أيام عثمان، واندسَّ بين المسلمين متنقلا هنا وهناك، في الشام ومصر والكوفة والبصرة، زاعماً أن علياً وصي محمد (ص) وان لكل نبي وصي، وتذكر بعض المصادر ان هذا الرجل كان عصب الحركة ضد عثمان، والعمود الفقري لها فقد أظهر الطعن فيه، وأثار الناس عليه، وأغرى بذلك جملة من الصحابة فيهم أبي ذر الغفاري (رض).

ومما يذكر هؤلاء عن هذه الشخصية أنها هي التي أوقعت بين علي وطلحة والزبير، فقد كان عبد الله بن سبأ وجماعته يرقبون الأحداث.

وحين رأوا ان الفريقين إقتربا من الصلح أسرعوا لاعلان الحرب واستغفال الامام من جهة وطلحة والزبير من جهة اخرى عن حقيقة الأمر، ولولا ذلك لعاد الفريقان غير مختصمين.

وإلى هنا تقريباً تنتهي رواية المؤرخين عن هذه الشخصية....

أمّا الكتاّب المحدثون والمستشرقون أيضا فقد عبروا عن شكهم البالغ في هذه الشخصية، وما إذا كان حقيقة، أم اسطورة تاريخية مكذوبة، وقد اقتربوا نحو اتهام المؤرخين في اختلاق هذه الشخصية ونسج خيوطها.

ولئن كانت لهذه الشخصية حقيقة ووجود، فهي دون ما يصوّره هؤلاء المؤرخين، وأقل من أن يكون لها هذا الدور التاريخي الخطر والتلاعب بعقول المسلمين وفيهم كبار الصحابة ومعظمهم.

فقد اعتبر الدكتور طه حسين هذه القضية متكلّفة ومنحولة، أراد خصوم

الشيعة بها أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً، إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم.

كما ان الأستاذ الصالح إعتبر التفكير في هذه القضية . قضية عبد الله بن سبأ . ساذجاً وسخيفاً[1].

وهكذا فان المؤرخين هم المسؤولون عن اختلاق هذه الشخصية، أو التصعيد من دورها وأثرها على التاريخ الإسلامي كلا.

هناك عدة ملاحظات هي التي دعت الباحثين المحدثين إلى الشك في هذه الشخصية:

أولا: لوحظ ان رواية المؤرخين مضطربة في شرح عقيدة هذا الرجل ومقالته. فبعضها تنسب إليه تأليه علي، بينما في الوقت ذاته تنسب إليه القلوب بان علياً وصي الرسول (ص) كما انها مضطربة في نسج أدوار هذه الشخصية، فبينما هو رأس الفتنة في مقتل عثمان، وفي حرب الجمل، إذا به ينعدم تماماً في حرب صفين ويهمل المؤرخون ذكره....

وبينما يذكر المؤرخون ان علياً احرق السبئيين الذين ألّهوه إذا به يعفي ابن سبأ من هذه العقوبة ويطلق سراحه... وبينما يذكرون انّ هذا الشخص هو رأس الدعوة لعلي، إذا بمعاوية . في روايتهم . يفكّه من العقال، ويعفيه من أي عقوبة....

كما لوحظ ان المصادر التاريخية المهمّة لم تذكر هذه الشخصية في الخلاف على عثمان " فلم يذكره ابن سعد حين قصّ ما كان في خلافة عثمان وانتقاض الناس ولم يذكره البلاذري في أنساب الأشراف "وإنّما ذكره الطبري ونقل عنه الآخرون.

1- اليمين واليسار في الإسلام: عباس الصالح.

ثانياً: ولوحظ ان رواية المؤرخين تنسب لهذه الشخصية ادواراً لا يمكن التصديق بها. فهي لا تتناسب ولا تنسجم مع الوضع الشخصي لهذا الرجل ومع الوضع العام لمجموع المسلمين والصحابة فاذا كان هذا الرجل جديد العهد بالاسلام فكيف استطاع ان يتغلغل في أوساط المسلمين أو يشيع فيهم الفتنة؟

وكيف استطاع أن يخدع ويؤثر على كبار الصحابة أمثال أبي ذر الغفاري وكيف استطاع أن يورّط المسلمين في حرب ضارية هي حرب الجمل. ويستغفل حتّى علي بن أبي طالب؟

وفي هذا يقول طه حسين:

"ومن أغرب ما يروى من أمر عبد الله بن سبأ هذا، أنه هو الذي لقّن أباذر نقد معاوية فيما كان يقول من أن المال هو مال الله....

وما أعرف اسرافاً يشبه هذا الاسراف فما كان أبوذر في حاجة إلى طارئ محدَث في الإسلام ليعلمّه ان للفقراء على الأغنياء حقوقاً ".

ثالثاً: ومما يلاحظ أيضاً ان رواية المؤرخين في قصة عبد الله بن سبأ في سلسلة رواتها إلى (سيف بن عمرو) وهو شخص شهد عليه علماء الرجال بالكذب والافتراء. فهو "ضعيف الحديث" و "متروك الحديث" و "ليس بشيء" وبعض أحاديثه مشهودة، وعامتها منكرة لم يتابع عليها. و " كان يضع الحديث " و " متروك أتهم بالزندقة "... [1].

وعلى ذلك لا يبقى أي مجال للوثوق بروايته.

ومن مجموع هذه الملاحظات أيضاً لا يصح الاعتماد على رواية المؤرخين في قصة ابن سبأ، وبذلك ينتفي الأساس الذي يستند إليه هذا الرأي في نشأة التشيع.

1- أنظر "عبد الله بن سبأ" للعلامة السيد مرتضى العسكري.

أما عن سبب اختلاق المؤرخين لهذه الأسطورة فقد حاول بعض الكتاب الاعتذار لهم بالقول: " ان ما حدث من الفتن بين الصحابة تصدم وجدان المسلم، فكان لابد أن تلقى مسؤولية هذه الأحداث الجسام على كاهل أحد، ولم يكن من المعقول أن يتحمل وزر ذلك كله صحابة أجلاء أبلوا مع رسول الله (ص) بلاء حسناً، فكان لابد أن يقع عبء ذلك كله على ابن سبأ... [1]".

ومهما يكن القول في صحة هذا الاعتذار، فأنه في الحقيقة لا يخدم قضية الصحابة اكثر مما يسيء لهم، فأنه يجعل منهم ألعوبة رخيصة بيد متطفل على الإسلام، يصرّف أمورهم كيف يشاء!!

الرأي الثاني:

ويرى فريق آخر من الكتاب ان التشيع ظهر كرد فعل لحركة الخوارج بما عبّرت عنه من مفاهيم وتصورات. فرغم انها حركة سياسية في الحقيقة الاّ انها اتخذت بعض الشعارات والاُطُرُ الفكرية العقيدية مما اضطر شيعة علي والموالين له إلى اصطناع أفكار وتصورات مقابلة تدعم ولائهم لعلي. أما قبل هذا التاريخ فلم يكن للتشيع معنى يزيد على الولاء والنصرة لعلي.

"وهكذا أنكر الخوارج الامامة فأوجبها الشيعة، واستبعد الخوارج تحكيم الرجال فأقرّ الشيعة ولاية الامام. كفرَّ الخوارج عليا فقدَّسه الشيعة... ".

وواضح ان هذا الرأي لا يعتمد على سند تاريخي، بمقدار ما يستشهد بالتقابل بين تصورات الشيعة والخوارج، ورغم انا نعترف بهذا التقابل الاّ ان ذلك لا يكون شاهداً على تأخر ميلاد التشيعّ عن حركة الخوارج، ولماذا لا يكون العكس هو الصحيح في ضوء مقياس التقابل؟ الحقيقة ان التشيع في جوهره، ومحتواه العام،

1- نظرية الامامة: احمد محمود صبحي.

الذي هو الايمان بالنص على الامام، وُجد قبل هذا التاريخ وكان الرسول (ص) هوواضع بذرته كما أسلفنا القول فيه مفصلا.

نعم لم يتم وضع التشيع في قوالب فكريّة، وصياغات عقلية محددّة الا فّي القرن الثاني الهجري حيث ظهرت حركة المتكلمين العقلية، وحاولت إعادة بناء المعتقد الديني من جديد على أسس وبراهين نظرية عقلية وكان للتشيع بالطبع نصيب في هذه المحاولة الاّ أن ذلك ليس معوّا أبدا عًن البداية التاريخية للمذهب، ما دامت أصول الجوهرية موجودة قبل هذا التاريخ.

(3)

عصر الرسول (ص) دور وضع النظرية

خطوط عريضة:

هناك حقيقة مطلقة يعرفها الرساليون، كما يعرفها غير الرساليين.

حقيقة مطلقة وقديمة بقدم تاريخ الحركات الانسانية الهادفة.

انّ كل الرسالات، الأحزاب، الحركات، الجبهات، تحتاج إلى قيادة، وطليعة، وجماهير. قيادة مؤسّسة، وطليعة واعية، ووسط شعبي جماهيري مؤيد ومساند.

وغير الرساليين كالرساليين يدركون ضرورة اهتمام القيادة . أي قيادة كانت . بخلق الفئة الطليعة. ضرورة التركيز على أصحاب اللياقات والكفاءات واحتضانهم بغية جعلهم الطليعة الواعية التي تستوعب أهداف ومفاهيم الرسالة جيداً. وتساهم في التخطيط لها.

وبقدر ما يكون مهماً توسيع نطاق الوسط الشعبي المؤيد والمؤمن بالرسالة، يكون مهماً انتقاء الطليعة من ذلك الوسط وتصعيد مستوى استيعابها للرسالة، وتنمية استعدادها للعمل والتضحية من أجل الرسالة. هذه حقيقة مطلقة واحدة

وهناك حقيقة ثانية:

انّ اهتمامات الرسالة . أي رسالة كانت . تتحجم وتتحدد . تبعاً لحجم أهدافها ومداها الزماني والمكاني. فالرسالات الاقليمية والمحليّة لا تتجاوز في اهتماماتها وطموحاتها دائرة الاقليم والمحلّة، كما أن الرسالات المرحلية والمؤقتةّ هي الأخرى تطوي نفسها على مرحلتها، وتفكر في حدود ما تتسع له أبعاد تلك المرحلة. وكلّما تجاوزت الرسالة الحدود الزمانية والمكانية وامتدت في طموحاتها لخارج دائرة الاقليم أو المرحلة كانت اهتماماتها ومحطّات أنظارها وحدود مسؤوليتها أكبر بالطبع ومتجاوزة لدائرة الاقليم والمرحلة أيضاً.

فهي تنظر لحاضرها كما تنظر لمستقبلها، وهي تنظر لمنطقتها كما تنظر للمناطق الأخرى وبالأحرى تكون مرحلتها هي الحاضر والمستقبل، ومنطقتها هي كل المناطق التي يمتد إليها طموح الرسالة وان تجاوزت المحلّة والاقليم.

وأيضاً غير الرساليين كالرساليين يدركون هذه الحقيقة، مع الاختلاف في العمق. والإسلام رسالة من تلك الرسالات . يفكر بعقليتها . ويخضع لقوانينها، يفكر بعقلية رسالية مبدئية ويخضع لقوانين ومسؤوليات الحركة الرسالية المبدئية والإسلام رسالة إنسانية مطلقة، لا إقليمية ولا مرحليّة.

رسالة للانسان حيث وُجد الانسان، في إمتداد الزمان، وفي إمتداد المكان.

رسالة يتّحد حاضرها بمستقبلها فيكون زمانها الزمان كلّه ويكون جيلها الأجيال كلها، رسالة يتحد أفقُها ليدخل فيه ابن العرب وابن العجم، ابن الريف والمدينة، ابن آدم هو الحد المكاني والزماني لهذه الرسالة.

هذا على مستوى الطموحات، فما هو حجم الاهتمامات؟

رسول الله (ص) خاتم الأنبياء هو قائد تلك الرسالة، فأين الطليعة؟ وأين

الشعب؟

الرسول (ص) إذن لابدّ أن يفكر في حاضر تلك الرسالة ومستقبلها، في أولى مراحلها وفي ثاني مراحلها، فالزمان كله لها، والأرض كلها ساحتها. والقائد إذن لابدّ أن يفكر في الخط الثاني الذي يقف بعد خط القيادة وهو الطليعة التي تحمي حاضر الرسالة، وتضمن مستقبلها.

فهو... مهما امتد به العمر واتسعت له القوة، لا يعيش عمر الرسالة كله، ولا يغمر أرض الرسالة كلها.

إنّما الطليعة هي المذخورة للامتداد بالرسالة إلى الجيل اللاحق ثمّ الأجيال التالية. والأمة كلهّا وبمجموعها لا يمكن أن تكون هي الطليعة وهي الخط الثاني بعد القيادة أو هي القيادة الثانية، الأمة . وان اشتركت في الإسلام . لكنها تجمع أنماطاً مختلفة في النفسيات والطموحات والارتباطات والعقليات;

والقائد يجب أن يوفّر للأمّة الحد الأدنى من الوعي الرسالي، لكنه غير قادر على أن يجعلها كلها بمستوى الطليعة، لماذا غير قادر...؟

لأن الفواصل بين إنسان الجاهلية وإنسان الإسلام كبيرة جداً، واجتياز هذه المسافة لا يمكن أن يحدث بطفرة وإنّما يحتاج إلى زمن أطول وممارسة أكثر.

الفواصل بين الجاهلية والإسلام هي الفواصل بين منتهى الضحالة ومنتهى السمو، بين أعمق الانخفاضات وأعلى القمم. بين الانسان الانساني وبين الانسان المادي، الاقليمي، المصلحي، المرواغ الأناني.

وهؤلاء المسلمون الذين أسلموا قبل الفتح أو بعده والذين دخلوا الإسلام عن رغبة أو عن إكراه وبدوافع شخصية، وأهداف ضيقة أو دوافع رسالية وأهداف رحبة.

هؤلاء.. معظمهم قضوا أنصاف أعمارهم في الجاهلية، حيث الضحالة

والعفونة والأوئبة في الأفكار والأهداف والنفسيات، وحيث النظرة الضيقة المنحورة والهدف الرخيص المريض.

أنصاف الأعمار أو أكثر من أنصاف الأعمار .وأحياناً أقل . قضيت في هذه المستنقعات وسبحت فيها وجاء الإسلام ثورة في كلّ الأصعدة والآفاق، ثورة في الفكر والنفس والخلق، ثورة في النظرة والطريقة، النظرة إلى الكون والحياة والانسان، وطريقة السلوك والتعامل في الحياة.

وانتقل هؤلاء . بعد تشبّع وامتلاء إلى الأعناق بالتفكير والسلوك الجاهلي . إلى الإسلام حيث النقاء والنزاهة والرحابة . وحيث الأُفق الانساني المنفتح والهدف العالي العظيم لقد نطقوا بالشهادة واعترفوا بالشعار (أشهد أن لا اله الاّ الله وأن محمداً رسول الله) وكان مفروضاً أن تجري معهم عملية مسح وغوس، مسح لكل القيم والترسبات والتعقيدات الجاهلية، ردم الانخفاضات والثغرات والانحدارات، ثم عملية غوس مقارنة أو متأخرة عن ذاك المسح، غوس للقيم، والخُلق، والمثل، والتصورات الانسانية الإسلامية.

وما تحتاجه عملية الغوس ليس بأقل مما تحتاجه عملية المسح من جهود وزمن.

انّ الارتواء التام بالسائل الجاهلي يحتاج إلى تجفيف تام، وهو لا يكون الاّ في مدةّ بطول مدةّ الارتواء وأكثر منها. وبعد التجفيف لابدّ من إرواء جديد بالسائل الإسلامي النقي.

ماذا يقدر رسول الله (ص)؟ وهو لا يملك بعد تكوين الأمة والمجتمع الاّ عشر سنوات، عشر سنوات فقط. تعامل فيها مع المسلمين كأمة ومجتمع، منذ انتصارات الهجرة إلى الوفاة، منذ وضع الحجر الأساسي في المدينة وإلى الارتحال عن الدنيا.

وهي عشر سنوات مملوءة بالمعارك، وهموم المعارك، ومشاكل ما قبل وما

بعد المعارك، عند الانتصار وعند الهزيمة، عند الاعداد للحرب وعند الرجوع من الحرب.

أكثر من ثمانين غزوة ومعركة خاضها المسلمون خلال هذه الفترة، وبالتقسيط، فأن ثمان معارك تحدث في كلّ سنة ثمان معارك بكل ما فيها وما لها وما عليها، إعداد وتعبئة واستشارة وتوجيه، وإقدام وإحجام، وإنتصار وهزيمة، وموت وحياة، وأفراح وحسرات، ودموع وضحكات كلها في سنة واحدة.

لقد كان ذلك من رسول الله (ص) بمثابة المعجزة، كيف حقق ذلك؟ وأي جهد بذله في ذلك؟ وما هو حجم المعاناة؟

بالزخم الروحي والرسالي استطاع ذلك، وبالتعبئة والشحن المستمر صنع ذلك، لكن الزمن نفسه لا يستوعب جهداً يستغرق زمناً أطول، وإن عشر سنوات لا يمكن أن تكون مئة سنة، ولا رسول الله (ص) قادر على تمديد الزمن، والرسالة التي بيده ضخمة ضخمة، وعشر سنوات كالتي شرحنا لا تتسع الاّ لنسج خيوطها الاولى، والاّ لرسم صورة تخطيطية عنها، ولا أكثر من ذلك، فلا الرسول قادر ولا أتباعه، ولا الزمن يقبل. كان على النبي (ص) أن يعبئ الأمة بالوعي الرسالي، والحماسي الرسالي، أمّا أن يجعلها الطليعة فلم يكن في مقدوره ولا كان.

من حقي أن استشهد على ما أقول، فأذكر يوم اختلف المهاجرون والأنصار على تقسيم الغنائم، واتهموا النبي (ص) بأنه قد مال إلى قومه حين وزَّع الغنائم على المهاجرين فثارت ثائرة الأنصار. كما أذكر انهزام المسلمين في معركة اُحُد وزعزعة ثقتهم بالرسالة حينما نادى المنادي (قتل محمد!).

ذاك على مستوى المفاهيم، والتصورات، وأصل العقيدة حيث سرى إليها الشك.

وعلى مستوى التشريع كان النقص في الفهم والاستيعاب مماثلا.

اختلفوا في كيفية التشهد في الصلاة إلى ثمانية أقوال.

واختلفوا في كيفية الوضوء.

واختلفوا في عدد التكبرات في صلاة الميت.

واختلفوا هنا وهناك، في أحكام المواريث، والقصاص، والحدود، والعقود، والزكاة، والصيام والأموال والأراضي وغيرها.

أليس عجيباً، هذه الصلاة التي مارسوها كل يوم، وخمسة مرات في اليوم، والوضوء الذي مارسوه كذلك، وإذا هم فيه وفيها مختلفون، فكيف في الباقي.

انّ ذلك ينبؤنا عن حقيقة ويؤكد لنا حقيقة.

ينبؤنا عن مستوى إتكال المسلمين على الرسول (ص) في قضايا الشريعة، وعدم الرغبة في استيعابها احتياطاً وتحفظاً للمستقبل.

ويؤكد لنا أن الرسول (ص) لم يجد فترة على تلقين الأمة، والوسط العام بفاصيل وبنود وأحكام الشريعة; حيث لم تكن الأمة

جادّة في معرفة ذلك. فيما كان قادراً على بناء الطليعة التي تستوعب الرسالة، وتقف بعده في الخط لتشرح للأمة تفاصيل رسالتها.

إذن كان على الرسول بناء الطليعة، وربط الأمة بها، والتهيئة لزعامتها بعده، وهذه مهام ثلاثة نحاول أن نقف عندها.

المهمة الأولى: بناء الطليعة:

الشي الذي يجب توفره وتحقيقه في الطليعة هو: استيعاب الرسالة نظرياً وتجسيدها سلوكياً، وأن تبلغ في الوعي والاخلاص بمستوى يؤهلها لمحمل أعباء الرسالة، وتزعّم تجربتها بعد الرسول.

إنّ المهمة التي تقع على عاتق الطليعة هي أن تخطو بالرسالة الخطوة الثانية والثالثة والرابعة، وهكذا الخطوة الأولى كانت للرسول (ص)، وهي بناء المجتمع الإسلامي، ورسم الأسس الأولى له. وعلى الطليعة تقع مسؤولية تعميق الرسالة في

داخل هذا المجتمع والعمل على توسيعه وكسر الأسوار المحيطة به.

وباختيار الفئة الطليعة، وتأهيلها لقيادة التجربة، وتحقيق الخطوة الثانية يكون الرسول (ص) قد أدى كل مهمته، ويكون قد بلّغ رسالته أكمل التبليغ، ومن هذه الزاوية بذل الرسول (ص) جهداً كبيراً في إعداد الطليعة بمستوى مهماتها المستقبلية. والحقيقة انه بمقدار ما كانت المهمات صعبة وخطرة، كان إعداد الطليعة بحاجة إلى جهد أكبر، ومعاناة أكثر من قبل.

النضج الذاتي:

وكانت ظاهرة (النضج الذاتي) هي الخاصية التي إشتهر بها الطليعة، ويبدو أن تلك الظاهرة كانت شرطاً من شروط الوصول إلى المستوى الطلائعي.

لماذا النضج الذاتي؟

النضج الذاتي يعني التفوق الذاتي والقبلي على خُلُق الجاهلية، وعدم الاستنقاع فيه. كما ويعني الشعور بانخفاض وانحراف الفهم الجاهلي كله وضرورة التحول عنه وانقاذ الانسانية من مآسيه.

رسول الله (ص) نفسه كان يحمل قمة هذا النضج، قبل أن يُبعث وقبَل أن يكون رسولا.

وهو بهذا النضج القبلي والنقاء المسبق، استطاع أن يلتحم مع رسالته فيما بعد ويصوغ وجدانه وأخلاقه وفهمه وسلوكه فيها.

انه بمقدار الابتعاد قبلا عن الخُلُق والفهم الجاهلي يكون الاقتراب من مفاهيم الإسلام وقيمه ميسوراً.

وبالعكس كلما كان التشبّع بالقيم الجاهلية اكبر، كان الالتحام مع مفاهيم الإسلام وتمثلها أصعب. ومن هنا كان النضج الذاتي شرطاً في اختيار الطليعة. انهم بذلك يكونوا أقرب إلى مفاهيم الرسالة وتجسيد قيمها، وانضج في استيعابها ووعيها، والمهمة التي يُعدّ لها الطليعة تتطلب كل ذلك، تتطلب إنصهاراً تاماً بالقيم ووعيا كاملا للطموحات وشعورا متفاقما بالمسؤولية يمكنهم من مواصلة خط

التجربة الإسلامية. وفي كل أفواد الطليعة كان النضج الذاتي المسبق موجوداً كما كان موجوداً عند الرسول (ص) نفسه، على اختلاف في درجة العمق والوضوح.

من هم الطليعة؟

لسنا نحن الذين نعيّن الطليعة، إنّما الرسول هو الذي عينَّهم واختارهم، ودورنا أن نكتشف هؤلاء الشخصيات. إن دراسة علاقة الرسول بأصحابه هي التي تهدينا لمعرفة الطليعة منهم.

وفي هذا الضوء يمكن اعتبار (علي وسلمان وأبي ذر وعمار) هم الطليعة المختارة والمعدّة لمواصلة خط التجربة الإسلامية، وربما أمكن أن نلحق بهم حذيفة بن اليمان والمقداد.

ان خاصية النضج الذاتي واضحة في هؤلاء، الأمر الذي يفسر لنا سرّ اختيارهم من قبل الرسول وإعدادهم شخصياً. كما يفسّر لنا عمق وجودهم في الإسلام والتحامهم مع الرسالة، فهماً وسلوكاً وخلقاً.

طبيعي انني لا أريد هنا الترجمة لهؤلاء، ودراسة أطوار حياتهم . قبل الإسلام وفي الإسلام مع رسول الله (ص) وبعده . إنّما ألفتُ النظر إلى خاصية النضج الذاتي فيهم.

أمّا علي (ع) فاعتقد انّ الحديث عنه تكرار في القول وزيادة فيما لا مزيد عليه، فهو وحده بين المسلمين جميعاً الذي لم يتلطخ بألوان الجاهلية، ولم يتدنس بقيمها ومفاهيمها.

ولذا فاني أتحدث عن الآخرين.

أتحدث عن سلمان الفارسي، وعمار، وأبي ذر.

المؤرخون يذكرون أن سلمان الفارسي عَبدَ الله وأخلص له قبل الإسلام، وأنه قضى عمراً طويلا باحثاً عن النبي الجديد، الذي أُنبئ بقرب ظهوره، وهو بهذه الغاية تحمّل كل المعاناة، ولم يمنعه حتىّ الأسر من أن يواصل بحثه الجاد عن النبي

الجديد.

انّ الشعور من الأعماق، بفساد واقع ما قبل الرسالة، وضرورة التحول عنه، إلى قيم جديدة ومفاهيم جديدة، وطريقة ا جتماع جديدة، هذا الشعور هو الذي لا يترك لسلمان قراراً، ويدعوه لأن يغامر ويجازف بحياته وحريته. فهو رسالي قبل الرسالة، وهو عميق، وداعي، ومتبصر، قبل أن يسمع دعوة النبي (ص)، وحتّى قبل أن يبعث رسول الله (ص).

حقاً كثيرهم الذين قاسوا مرارات الوضع اللاانساني وعانوا مآسي القيم والمفاهيم المنخفضة المريضة لكن من كان منهم يملك الإرادة، والتصميم؟

من كان منهم يتسع في تصوراته وطموحاته ويتجاوز الطوق الجاهلي؟

اكثر الذين شعروا بالآلام، والمآسي، كانوا كالنعامة، تدفن رأسها في التراب حين تشعر بالخطر، وهؤلاء كانوا يشعرون بالنقمة لأنهم مظلومون، ومضطهدون، ومسحوقون شخصياً، ولا يتسع افُق تفكيرهم لأكثر من هذا، لتفنيد الأسس المفهومية

للوضع القائم،ولا ينهض لهم طموح في الخروج عليه.

أما الأبطال التلريخيون فهم الذين يشعرون بالألم، ويطمحون لتغيير أساسي، هم يشعرون بالألم وربما ليسوا مألومين شخصياً،وانّما يحملون ألم الطبقات المضطهدةوالمنكوبة،وهم يشعرون بالألم ويتحملون المآسي، لكن بلا انهيار، وبلا تنازل، وإنّما تصميم على الانقضاض والتغيير والنسف للمبادئ المنحرفة كلها.

وهكذا فان سلمان . على ما يحدّثنا عنه المؤرخون . لم يكن بوضع تعيس عائلياً بل كان يعيش في عائلة مرفهّة، لكنه كان بطلا تأريخياً، كان يحمل في صدره هموم المظلومين المحرومين، هموم الواقع الأسود الأسود، انظروا لقد تنقل بين فارس ودمشق والموصل ونصيبين وعمورية، ثم مكّة حيث التقى برسول الله (ص) وأسلم على يده. أليس هو رسالي قبل الرسالة؟

أمّا أبوذر فهو من نفس الطراز الرائع، طراز الرجل الرسالي الانساني الطموح.

أيضاً أجمع المؤرخون على أنه عبَدَ الله مخلصا قَبل الإسلام، وهو كما كان سلمان، لم يعبد الله كما يعبده اليهود، وكما يعبده النصارى يومذاك، لقد عبد الله مخلصاً مخلصاً. بعيداً عن كل التعقيدات والتحريفات والضلالات. هو يحدثّ: " صليتّ . يا ابن أخي . قبل أن القى رسول الله (ص) ثلاث سنين وحين سأله: أين تتوجه؟ قال: أتوجه حيث يوجهني الله ".

وكما كان سلمان كان أبوذر شغوفاً في معرفة أمر الرسول الجديد. لأنه يحمل الأهداف الرسالية، ويعي ضرورة الثورة والتغيير.

أُنظروا: " بايع النبي (ص) على أن لا تأخذه في الله لومة لائم، وعلى الحق وان كان مراً "[1].

أليس هذا دليل النضج الذاتي؟ ومزة البطل الرسالي؟

ولقد كان عمّار بنفس هذه المزايا والطموحات تألم، ووعي، وتصميم. وهذا هو النضج الذاتي قبل الرسالة.

لقد كان يتوصَّد هو وأبوه أمر النبي الجديد الذي شاع أنه سيظهر لكنه لم يكن يتوصدَّ كما يتوصدَّ الأحبار والرهبان. كان يتوصد لأجل الإنتماء، لأجل الإنضمام إلى الحركة الاصلاحية، إلى الرسالة الجديدة وكان يحدِّث أباه ويحدثّه أبوه بأخطاء الكيان الجاهلي التعيس، وكان يحدّث أباه كما يحدثّ نفسه بالانتفاضة، بالنهضة، بالحركة الهادفة الاصلاحية، ومع أناُس من هذا القبيل تكون دعوة الرسالة مسموعة، ومقبولة بأسرع ما يكون القبول.

فهؤلاء أصحاب النضج الذاتي كلهم سابقون إلى الإسلام.

1- أُسد الغابة في معرفة الصحابة.

كان عمّار من الثمانية الذين أسلموا أولا بأول . وكان أبوذر رابع أربعة أو خامسة خمسة في الإسلام، وكان سلمان من السابقين . كما يذكر المؤرخون . أما علي فهو أول المسلمين بالطبع.

والذي يُلفت نظرك في هؤلاء الطليعة أنهم سابقون للإسلام رغم انهم بعيدون عن مكة، وإنما قصدوها للإسلام. أية عظمة

لمثل هذا الدخول في الإسلام والاعتناق لمبادئه!!

ربما يكون غير هؤلاء من السابقين أيضاً، لكنهم كانوا يعيشون مع النبي، وأسلموا بدعوة من النبي، أمّا هؤلاء فهم دعوا أنفسهم للإسلام، أليس عظيماً؟!

الإعداد الرسالي:

يظهر من مجموع الروايات ان الرسول (ص) اختص هؤلاء بعناية فائقة، ميّزهم بها عن سواهم، وهذا هو الذي دعانا إلى اعتبارهم الطليعة التي أعدّها الرسول الأكرم (ص) لتحمل مسؤولية الرسالة بعده، كما دعانا إلى هذا الاعتبار أن الرسول (ص) ربط الأمة بهم، وأمر بلزوم طريقتهم كما سيأتي. وعلى أي حال فالدلائل كلها تشهد أن الرسول (ص) كان حريصاً على أن يضع كل الرسالة بيد هؤلاء، وعلى أن يتابع تربيتهم وإعدادهم خطوة فخطوة، ولعلنا نعرف بالضبط ما الذي دعا الرسول إلى ايثار هؤلاء، فان النضج والاخلاص والاندماج بالرسالة الذي يتمتع به هؤلاء كاف لتفسير هذا الإيثار.

وصور العناية بهؤلاء وتعبئتهم علمياً وروحياً وخلقياً مبثوثة في أكثر من مكان، ومظاهر الصلة والصداقة الحميمية بينه وبينهم تجدها حيث نظرت في صفحات تأريخهم.

لقد قال في عمّار: " انه لا يخيّر بين أمرين الا آختار أشدهما ".

وقال: " إن عماراً ملئ إيماناً إلى حشاشة ".

أما أبوذر: " فقد كان لرسول الله ملازماً وجليساً وعلى مسألته والاقتباس منه حريصاً والقيام على ما استفاد منه أنيسا وسأله عن الأصول وسأله عن الايمان والاحسان ".

وفي حديث ابي الدرداء:

كان رسول الله يبتدئ أباذر إذا حضر، ويتفقده إذا غاب وقد قال فيه: " ما اظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق وأوفى من أبي ذر، فقال عمر: يا رسول الله: أفنعرف ذلك له؟ فقال: نعم فاعرفوه ".

وعن سلمان تحدثنا عائشة انه: " كان له مجلس عند رسول الله (ص) ينفرد به بالليل " وقد قال فيه (ص): " لقد أُشبعَ سلمان علماً ".

وحذيفة بن اليمان كان (صاحب سرّ رسول الله) باتفاق المؤرخين وأهل التراجم. وقد صار ذلك لقباً له وقد ورد في صحيح مسلم: " انّ رسول الله أعلمه بما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة ".

وقال فيه رسول الله (ص): " حذيفة بن اليمان من أصفياء الرحمن وأبصركم بالحلال والحرام ".

وقد ذكر المؤرخون أن رسول الله أعلمه بكثير من الغيبيات، وكان من علمه أنه يعرف المنافقين بأعيانهم، حتّى كان المسلمون يسألونه في ذلك.

وكان المقداد (صاحب رسول الله).

أما علي فالحديث عن صلته بالرسول، وملازمته له حديث عن الواضحات، ولقد كان واضحاً مثل وضوح الشمس ان علياً (ع) هو الوارث العلمي للرسول (ص) ولقد سئل ابن عباس: كيف ورث علي رسول الله؟

فقال: " لأنه كان أوّلنا به لحوقاً وأشدنا به لزوما ".

وعن ابن عباس أيضاً: " كنا نتحدث أن النبي (ص) عهد إلى علي سبعين

عهداً لم يعهده إلى غيره ".

وعلي نفسه كان يقول: " كانت لي منزلة من رسول الله (ص) لم تكن لأحد من الخلائق، كنت أدخل على نبي الله كل ليلة، فان كان يصلي سبّح فدخلت وان لم يكن يصلي أذن لي فدخلت ".

وعنه أيضاً: " كان لي مع النبي مدخلان، مدخل بالليل، ومدخل بالنهار " لماذا اختصّ النبي عليا بذلك، وهل كان من باب الصدفة؟

النظرة التحليلية الشاملة تقنعنا في أن النبي كان يهدف إلى إعداده كاملا ووضع الرسالة كلها بين يديه وأمام عينيه، وكان يقصد ذلك قصداً، ويتعمده عمداً، فاذا سكت علي ابتدأ النبي، واذا نفدت أسئلته تبرّع النبي بالعطاء.

وحين كان يقول: " أنت تبيّن لأمتي من بعدي " كان يعني حقيقة ما يقول. فالأمة لا تملك تفاصيل الرسالة ولا استعدّت لذلك، إنما علي والصفوة المؤمنة هم القواعد بعد الرسول (ص)، وهم روافد الأمة.

ليس علي وحده هو الذي يحظى بالعناية الاستثنائية، إنما سلمان وأبوذر وعمار كان لهم حصّة، كان لهم مدخل على الرسول (ص) كما كان لعلي مدخل، وكان لهم بعد ذلك من العلم حظ وافر لا يدنو منه أحد من رجال هذه الأمة.

أليس ملفتاً للنظر أن هؤلاء الصفوة مثلوا خطاً واحداً بعد الرسول (ص)، ومثلوا خطا واحدا أيام الرسول (ص). ما الذي جمعهم؟ ومن ربطهم؟ وكيف اتّحدت كلمتهم؟

نعم، كان نصيب علي من تلك العناية أكبر، لأن علياً نفسه كان أكبر وأنضج.

كان علي نفس الرسول لحمه من لحمه، ودمه من دمه، وكان علي أخا الرسول، وكان علي من النبي (ص) بمنزلة هارون من موسى. هكذا كان يقول رسول

الله (ص)، علي لم تلوّث قلبه نقطة من نقاط الجاهلية السوداء، علي لم يشترك في تربيته أحد سوى رسول الله (ص) قبل النبوة وبعد النبوّة، النبي محمد (ص)... حيث الطهارة، والصفاء، والنضج والخُلُقُ وسمو النفس. حتىّ المجتمع الجاهلي لم يتصل به علي، وليم يتدنَّس بشائبة من شوائبه، هو في بيت النبي (ص) قبل الإسلام وفي بيت النبي (ص) بعد الإسلام، وإلى بيت من بيوت النبي بعد الاصهار بفاطمة.

وبعد فعلي من بيت كله شرف، ورفعه وبُعد عن سخافات قريش، وتعالي عن دناءة قريش، حتىّ الوراثة تعمل فيه عملها.

هل كان أبو طالب كما كانت قريش وشيوخ قريش حيث الانتهاز، والأنانيّة، والوصولية، والعفونة في التفكير وفي الخلق؟

تاريخه يقول لنا: انه فوق ذلك كله، والبيت الهاشمي معروف من قبل ومن بعد بالتفوّق على الانحطاطات.

هذا هو علي ربيب النبي ثم أخوه ثم نفسه.

ولقد كان علي قمة الطليعة كما أراد الرسول (ص) وكان المحور والمركز والمَثَل للطليعة أنفسهم، لقد كان باب مدينة علم الرسول وكفى. ومن هنا كانت الطليعة كلها شيعة لعلي، وعرفت بذلك على عهد رسول الله (ص).

يحدّثنا الرواة: " انّ أول اسم ظهر في الإسلام على عهد رسول الله (ص) هو الشيعة وكان هو لقب أربعة من الصحابة وهم أبوذر وسلمان والمقداد وعمار ".

ولم يكن الإعداد علمياً فقط، لقد كان النبي يعدّهم نفسياً ومعنوياً أيضاً.

كان يحدّثهم بمسؤوليتهم فيما بعد، وكان يحدثّهم عن دورهم، واذ كان يعلم أن قريشا ستنحرف عنهم، فقد كان يوصيهم بالتماسك وعدم الانهيار والتمتع بالنَفَس الطويل.

لقد كان يحدّث علي بتفاصيل ما يجري عليه، وكان يحدثّ الطليعة بمثل ذلك.

الاندماج مع الرسالة:

وهؤلاء الطليعة الذين ملكوا النضج الذاتي، وحباهم رسول الله بالإعداد الرسالي كم كان أنصهارهم بمفاهيم وقيم الرسالة الالهيّة؟

وما هي درجة تفاعلهم ودرجة تضحيتهم ودرجة شعورهم بالمسؤولية.

هنا أيضاً نلاحظ التفوق منذ البداية حتّى النهاية.

إذا أردتم أن تنظروا إلى علي، فلا تنظروا إليه وإنما قارنوا بين مواقفه ومواقف سائر المسلمين، على اختلاف درجاتهم.

قارنوا بين مواقفه في معركة الأحزاب وموقفهم، حيث الرسول (ص) ينادي قائلا من يبرز له . عمرو بن ود .وأنا أضمن له على الله الجنة فلا يقوم أحد الاّ علي ثلاث مرات.

لقد كان الايمان كله يبرز إلى الشرك كله على حدّ تعبير الرسول (ص).

هنا المسلمون فقدوا إرادتهم ونسوا مسؤوليتهم، ومن هنا كان علي وحده الإيمان كله!!

وقارنوا بين موقفه يوم خيبر وموقفهم . رأيت كيف انهزموا قبل أن يضربوا بسهم أو يطعنوا برمح . لمجرد الرؤية إنهزموا أمّا علي فأنت تعرف ما صنع.

قارنوا بين موقفه يوم حنين وموقفهم، لقد تركوا الرسول (ص) وتركوا الرسالة، ونفضوا أيديهم من المسؤولية رأيتم كيف ولّوا مدبرين؟!

أما علي فإلى اللحظة الأخيرة كان يمزّق الكتائب، ويبعثر الصفوف، ويرد عن رسول الله (ص)، ربما لا عن قصد جاء

حديثي عن الشجاعة لكن الامام علي (ع) لا يملك الشجاعة وحدها، وإنما يملك الكفاءة الكاملة في أداء الرسالة، لقد قال له الرسول (ص) يوم استخلفه على المدينة: " إنه لا يصلح لها الاّ أنا وأنت " ولقد قال له

يوم بعثه بسورة براءة وردّ أبابكر: " إنّه لا يؤدي عني إلا أنت " أليس هو إذن صنو النبي (ص)، خذوا من شئتم سلمان، عمار، أباذر، أو مقداد أو حذيفة، لمن قال النبي (ص) كما قال لعمار؟

" أبو اليقضان على الفطرة، أبو اليقظان على الفطرة، لن يدعها حتّى يموت " ولمن قال كما قال لـ (أبي اليقظان):

" من يعادي عمّاراً يعاديه الله، ومن يبغض عماراً يبغضه الله ".

اسمعوا أم المؤمنين عائشة تقول: " ما من أحد من أصحاب رسول الله أشاء أن أقول فيه الاّ قلت، الاّ عماراً فانيّ سمعت رسول الله (ص) يقول فيه: انه ملئ إيماناً إلى أخمص قدميه ".

ولمن قال مثل ما قال عن (ابن سميّة):

" ما لهم ولعمار، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، إن عماراً جلدةٌ ما بين عيني، إن عماراً جلدة أنفي "وهذا هو عمار البطل، والرسالي العظيم في كل عصره، هو عمار في الحرب ضد الشرك، وفي الحرب ضد التحريف أيام عثمان، وفي الحرب ضد القاسطين والمارقين والناكثين.

أُنظروا أباذر، ورمز البطولة، والمثل الرسالي العنيد.

أُنظروا عشقه للإسلام، وتلهفه للرسالة الجديدة. فيوم أسلمَ وقد كانت الدعوة سريةً، قال: "والذي نفسي بيده لأصوتن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتّى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا اله الاّ الله وأشهد انّ محمداً رسول الله ".

هو يعرف ماذا يعني هذا الكلام، وماذا ينتظر من هذا الكلام. لقد ثار القوم إليه وضربوه حتّى أضجعوه.

أرأيتم أباذر هذا " العابد الزهيد، القانت الوحيد، رابع الإسلام، ورافض

الأصنام قبل نزول الشرع والأحكام، تعبَّد قبل الدعوة بالشهور والأعوام، وأول من حيا الرسول بتحية الإسلام، لم تكن تأخذه في الحق لومة اللوام، ولا تقرعه سطوة الولاة والحكام، أول من تكلم في علم البقاء والفناء، وثبت على الشقة والعناء، وحفظ العهود والوصايا، وصبر على المحن والرزايا، واعتزل مخالطة الورايا... " هكذا قال عنه أبو نعيم في حلية الأولياء.

"رحم الله أباذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده " كم هو عظيم أبوذر في عين الرسول (ص) إذ يحدّث عنه بهذه الكلمات.

وحين أسلم أبوذر كان يعرف حقيقة إسلامه، ولقد كان يعرف كيف سيصنع تأريخه الرسالي.

إذا كان قد أسلم فأنما " بايع النبي (ص) على أن لا تأخذه في الله لومة لائم، وعلى أن يقول الحق وإن كان مرّاً " هكذا حدّثونا.

وخذوا سلمان وما أدراكم ما سلمان!!

" لقد أُشبع سلمان علماً " هكذا قال الرسول الأكرم (ص). وكان خيراً فاضلا حبرا عالما زاهدا، كما قال ابن حجر.

أليس هو سلمان الذي كان له مجلس عند رسول الله ينفرد به بالليل، أليس هو سلمان الذي من محمد (ص) ومن أهل البيت.

أي فارسي هذا الذي يتنازعه المسلمون، فيريده المهاجرون ويريده الأنصار، ولكن يريده رسول الله (ص) أيضاً فيكون سلمان المحمدي. وهنا أود أن أُلفت إلى حقيقة:

حينما حكمت أُميّة الصريحة العداء للإسلام، أرادت التشويه على هذه الطليعة وتحريف ماضيها والتشكيك في تأريخها ورسالتها.

لقد كانت أُميّة تعرف أن هذه الطليعة هي لب الإسلام الحقيقي، وعرقه

النابض، ان أميّة تريد أن تحكم بإسم الإسلام وباسم الرسالة، ومن هنا عمدت إلى التضليل والتعتيم وجرّ الأسدال على طليعة هؤلاء الرجال.

المهمة الثانية: ربط الأُمّة بالطليعة:

كان بناء الفئة الطليعة، المخلصة والمستوعبة، هو الخطوة الاولى على الطريق، طريق بناء مستقبل الرسالة، طريق الاحتياط لضمان نجاح التجربة الإسلاميّة بعد الرسول (ص).

لكن بناء الطليعة ليس هو كل المهمة، إنه لابدّ من خطوة ثانية على الطريق، لابدّ من ربط الأمة بالطليعة وتوطيد ثقتها بها، وتمكين الطليعة من إمساك زمام القيادة فيما بعد، لتكون المسيرة واعية، ومتبصرة وقادرة على مواجهة الصعوبات.

ليس كل المطلوب أن توجد فئة واعية ومملوءة، إن ذلك لن يحقق شيئاً كثيراً إذا كانت هذه الفئة غير قادرة على التحرك، وغير قادرة على توجيه المسيرة، ولا متمكنة من تحقيق أهدافها، إنه لابدّ من تسليم المفاتيح بيد الطليعة لتمكينها من التوجيه والتحريك المناسب.

ومن ذلك كانت الخطوة الثانية على الطريق، أن يوفّر الرسول (ص) للطليعة فرصة قيادة الأمّة، وزعامة التجربة.

ولقد سعى الرسول (ص) في ذلك حثيثاً، وكان سعيه على ثلاث مراحل.

أولا: التعريف بالطليعة:

لقد سعى أولا لابراز الطليعة في المجتمع الرسالي، بغاية تركيز وجودهم، وتعزيز ثقة الأمة بهم، وتحصيل الولاء العام لهم. وفي هذا يأتي سيل من الثناء والأطراء والأشادة، والتكريم والتمجيد

والحفاوة.

عشرات الأحاديث جاءت وفي عشرات المواقع كان الرسول يبيّن ضرورة حبهّم وودهّم ويحذرّ من بغضهم ومعاداتهم، لقد كان ذلك أمراً مدروساً ومقصودا ًجدا.ً

كان يقول باجماع المؤرخين والمحدثين:

" انّ الله أمرني بحبّ أربعة، وأخبرني أنه يحبهّم.

قيل: يا رسول سمّهم لنا.

قال: علي منهم . يقول ذلك ثلاثاً .وأبوذر والمقداد وسلمان، أمرني بحبهم وأخبرني أنه يحبهّم ".

وكان له في كل واحد منهم قولا كثيراً، وأنا شطراً منه، كان يجمعهم مرةّ ويفردهم أخرى، يأمر بحبهمّ ويحذرّ معاداتهم ويخبر عن الله بحبهم، وعن نفسه أنه يودّهم. حتىّ الآيات نزلت فيهم، تمجدّ، تعظمّ، وتثني.

وهو (ص) شخصياً كان يقرّبهم إليه، ويفردهم بمجلسه ويعطيهم من نفسه ووقته أكثر مما يعطي للآخرين واذا كان علي (ع) هو القمة في هؤلاء، وكانوا له شيعة ومحبين، فقد دعا ملياً إلى الدخول في صف الشيعة، وهو يقصد الطليعة التي عرفت مكان علي ومقامه في الإسلام.

كان (ص) يحدّث عن مقامه، فيقول: " علي مع الحق والحق مع علي "، " علي سيد العرب "، " علي سيد الأصحاب "، " علي سيد المسلمين وأمير المؤمنين وامام المتقين وقائد الغرّ المحجلّين "، " علي مع القرآن والقرآن مع علي "، " أنا مدينة العلم وعلي بابها ".

ويقول علناً وبجمع من الناس: " أنت منيّ بمنزلة هارون من موسى " وكان يحدثّ عن حبهّ فيقول: " من أحب عّليا فقدً أحبّ الله ومن أبغض علياً فقد أبغض

الله "، " حبّ علي ايمان وبغضه نفاق "، " عادى الله من عادى علياً "، " من آذى عليا فًقد آذاني ".

وعشرات ومئات من أمثال ذلك، حتّى لقد جعل منه ميزاناً يفرقّ بين الايمان والنفاق، فاذا المسلمون على عهد رسول الله (ص) يعرفون المنافقين ببغض علي، على ما تواتر بنقله المؤرخون.

وكان يحدّث عن شيعته، فيقول: " يا علي أنت وأصحابك في الجنة "، " ان هذا . علي . وشيعته لهم الفائزون "، " انك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين، ويقدم أعداؤك غضاباً مقمحين ".

وهكذا يصعد بعلي ويصعد عالياً عالياً، حتىّ كان أصحاب رسول الله (ص) إذا أقبل علي يقولون: " جاء خير البريةّ " وكم مرّة انفجر رسول الله (ص) في وجه الساخطين الحاسدين المنافقين لأنهم نالوا من علي وطعنوا فيه!! كم مرةّ قال لهم: " ما لكم وما لي؟ من آذى علياً فقد آذاني ".

" من تنقَّص علياً فقد تنقصَّني، ومن فارق عليا فًقد فارقني، وان علياً منّي وأنا منه ".

ويُعرف الغضب في وجهه مرةّ وهو يقول: " ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ان علياً مّني

وأنا منه ".

من يسأل نفسه: هل كان النبي (ص) غارقاً في هوى ابن عمه؟ وسواء أحبوه أو أبغضوه فهل ذلك يعني النفاق، ولماذا الاغواق في الثناء عليه؟ فليكن مؤمناً رسالياً، فهل يدعو ذلك لأن تكون معاداته معاداة الله؟ كثيرون هم المؤمنون، أو هم الأبطال، فَلِمَ لا يكونوا كذلك؟

لا، لم يكن النبي مبالغاً ولا متعصباً، لقد كان يعرف ويعني ما يقول جيداً.

كان علي (ع) القاعدة الحصينة المنيعة في هذه الرسالة، ولقد كان . ويكون .

الصخرة التي تتهشم عليها قبضات المشركين والمنافقين والوصوليين، ولقد كانوا يعرفون ذلك.

ولولا أنه بهذه المثابة إذن لم يكونوا يبغضوه،ولا كان بغضه علامة النفاق.

إنه بمقدار مقام علي من الرسالة ومن الرسول كانت قريش . المشركة بالأمس والطامعة بالسلطان اليوم . تبغضه وتضمر له العداوة، لقد كانت صدورها تغلي بهذا الغضب وأفئدتها تحترق بهذه الضغينة، وها هو علي يصعد ويرتفع ويعلو.

والمنافقون . الذين لا تعلمهم الله يعلمهم . يكيدون للرسالة ويكيدون للرسول، لكن علياً هنا، ولن يتخلى عن رسالته ولا رسوله، فكيف المصير؟

لقد كان عداءاً أي عداء.

ثأرٌ للماضي، وحسدٌ للحاضر، ومنافسة على المستقبل، كلها تجمعَّت واتضَّحت في وجه قريش، حتى تكاد تهتك نفسها، وتعلن خبث سريرتها، والرسول يتمزق لهذه المأساة.

" ما تريدون من علي، ما تريدون من علي، ما تريدون من علي، انّ علياً مني وأنا منه ".

وعلى أي، فقد كان السعي حثيثاً لتركيز وجوه الطليعة، وكسر الجدر النفسية بينهم وبين الأمة.

ثانياً: الدعوة لإلتزامهم:

ولقد سعى الرسول الأكرم (ص) ثانياً في تحفيز الأمة نحو التزام خط الطليعة الذي يمثّله الامام علي (ع) عند إفتراق الخطوط.

فالولاء الذي أكّد الرسول (ص) ضرورته لعلي، لا يجوز أن يبقى ولاء

العواطف فقط، إنّما لابدّ أن ينعكس على الموقف والاتجاه.

وإذا كانت الاتجاهات غير بارزة على السطح أيام الرسول (ص) فهو على أي حال قد تنبأ بها ولمس خيوطها كان يقرأ تلك الاتجاهات في وجوه قريش وفي وجوه عدد من الصحابة، وكان يعرف حجم الفتن التي ستجابه الأمة.

ومن هنا كان يؤكد دوماً ان اتجاه علي هو الحق عند افتراق الاتجاهات، وان جبهة علي هي الحق عند تعدد الجبهات، لقد

كان يقول ويكرر القول:

" ستكون بعدي فتنة، فاذا كان ذلك فالزموا علي بن أبي طالب، فانه أول من يراني، وأول من يصافحني يوم القيامة ".

علي هو الطليعة مجتمعة في واحد، وعلي هو قمة الطليعة متفوقة في أفراد، ولذا فهو أول من يراني وأول من يصافحني يوم القيامة. ولزوم علي بن أبي طالب هنا لا يعني مفهوماً مرناً يقبل النقائض، إنما هو التزام إتجاهه وخطه في كل مجالات الاختلاف ومجالات الفتن. أما التودّد وإضمار المحبة له دونما اتبّاع، فليس هو المطلوب بالأساس وهكذا كان يقول (ص): " تكون بين الناس فرقة واختلاف فيكون هذا وأصحابه على الحق، وإذا كان علي يمثّل الطليعة، فخطه هو خط الطليعة كلها، هو خط سلمان، وأبي ذر، وعمار، والمقداد، وحذيفة خط واحد هو الحق لا سواه.

ولذا فأن " عمّار مع الحق والحق مع عمّار " كما قال (ص) ولذا أيضاً: " إذا اختلف الناس فابن سمية مع الحق " كما قال (ص) لأن ابن سمية من الطليعة، ومن شيعة علي، فهو في نفس الخط وهو (ص) نفسه يقول لعمار:

" يا عمار بن ياسر: ان رأيت علياً قد سلك وادياً، وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي فانه لن يدليك في سدى ولن يخرجك من هدىً ".

وتعبيراً عن هذه الوحدة أيضاً، الوحدة في الخط، قيل: يا رسول الله عمنّ نكتب العلم؟ فقال: عن علي وسلمان.

وعلى أي حال، فالرسول هنا يدعم الخط ويدفع المسلمين نحوه، لأن الخطوط الأخرى كلها منحرفة، مزوّغة، مزيفّة، لأنها ناشئة من عدم إستيعاب الرسالة، وعدم الإندماج مع أهدافها.

الرسول هنا يقيّم خط الطليعة، ويُعلن عن موقفها من الرسالة وأهداف الرسالة، بغاية ربط الأمة بها، بطليعتها الواعية المخلصة المؤمنة حقيقة الايمان.

في جانب آخر كان الرسول (ص) يوطّد المودّة والصلة بين الأمة والطليعة، وهو في هذا الجانب يحددّ الخط الّصحيح، ويقول الكلمة الثانية في الطليعة، فليسوا فقط أصحاب وعي واخلاص يدفع نحو مودّتهم، إنمّا هم يعيشون الرسالة كلها، ويدركون الرسالة كلها، منصهرين مع الرسالة تماماً. إذن فخطهم وحدهم على الحق والخطوط الأخرى مزيفّة خطرة.

ثالثاً: التأكيد على قيادتهم:

ولقد سعى ثالثاً في تأكيد الكلمة الثالثة والأخيرة.

وكانت الكلمة الأخيرة انّ خط الطليعة هو الخط القائد والموجّه والزعيم، وأن هؤلاء الطليعيون هم قادة التجربة بعده، ولهم وحدهم حق زعامتها، لأنهم وحدهم على الحق، أما الخطوط الأخرى فغير جديرة ولا مؤهلة للقيادة، ولا مأمونة الانحراف.

هؤلاء الطليعة هم الذين كرسَّهم الرسول (ص) لهذه المهمة، ولذا فهم اكثر إستيعاباً وإخلاصاً. وهم يعرفون جيدا وبلا دهشة ولا إنهيار ولا خلل أين هو موضع الخطوة الثانية والثالثة والرابعة للرسالة.

لقد أُشبعوا علماً، ولقد كانوا على الحق، ولقد ملؤا ايماناً، فبهذا حدثَّ عنهم الرسول (ص).

القطاعات التي لم تستوعب الرسالة، ولم تلتحم معها تماماً، لا يمكن أن تعطى القيادة لأنها سوف تعثر وتنحرف، ثم تضيع التجربة كلها بتضخم واتساع

الانحراف بالتدريج.

والتجربة مازالت طريّة وفنية،ولا تستطيع أن تحصّن نفسها ما لم تكن تحت إشراف وقيادة الطليعة المستوعبة المملوءة علماً وحقانيةً.

ولذا جاءت الكلمة الثالثة، جاءت شديدة، وجديّة، وقاطعة، ومؤكدة. جاءت يوم اجتمع المهاجرون والأنصار وألوف الأعراب، في أخطر وأهمّ وأكبر حشد اسلامي في تاريخ الرسالة كلّه.

اجتماع رهيب ومفاجئ، فيه الرسول (ص) وفيه المهاجرون، وفيه الأنصار، وفيه المسلمون جميعاً، وفيه الوحي يهبط بالكلمة على قلب الرسول.

{يَا ايَهُّا الرسوَّلُ بلغُ مَا ٍانْزِلَ اليكُْ مِنَ ربكَْ وَان لِمْ تفعَلْ فمَا بلغْتَ رِسالَتْهَ} مصَير الرِّسالة كلّهَ يتوَقفُ على هذه الكلمة، ولذا قال تعالى: **{إنْ لمَ تفعَلْ فمْا بلَغتَ رِسَّالْتهَ}** لقد صَنُعت الطليعة، هذه خطوة أُولى على الطريق.

والآن بلّغ ما أنزل اليك، إنَّ هذه الطليعة هي القائدة والموجهّة.

ونهض الرسول، كما نهض لإعلان البيان الأوّل في الإسلام، يوم هبط عليه الوحي **{وَانَذْرِ عْشيِرتكِ الاَقْرَبين}**، هَنا نهَضة مشابهة في خطورتها، وموقعها من الرسالة.

انظروا كيف نهض؟

نهض وهو واثق بأن الذين عارضوه أمس سيعارضوه اليوم، والذين سخروا منه أوّلا سيسخرون أخيراً، لكنه على أي حال نهض لأن الله يعصمه من الناس وانظروا كيف قال...؟

إنّه وضع الرسالة أمامهم، وكأنه يقول: انّ كلمتي هذه هي الخطوة الثانية في الرسالة، وهي تحديد مصير الرسالة كلهّ: " أليس تشهدون أن لا اله الاّ الله وأن محمداً

عبده ورسوله، وأن جنته حق، وأن نزه حق، وان الموت حق، وان البعث حق بعد الموت، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور؟ " ها هو يعرض الرسالة كلها، فماذا بقي؟؟ لقد قالوا بلى على كل هذا العروض، بلى نشهد بذلك.

وهنا قال (ص): " يا أيها الناس ان الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله ".

ثم قال:

" أيها الناس اني فرطكم، وانكم واردون عليَّ الحوض.. واني سائلكم حين تردون عليَّ عن الثقلين كيف تخلفوّني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله عزّ وجلّ.. وعترتي أهل بيتي، فانه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن ينقضيا حتىّ يردا علي الحوض ".

وبهذا تمت الرسالة، لأن رسول الله (ص) قد طرس ماضيها، وحدّد مستقبلها وبهذا تزل الوحي " اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً ".

وبهذا أيضاً كان التشيع . الذي يعني الإسلام كاملا وغير مجزئ . قد وضع فكان هذا العصر عصر تأسيس النظرية.

غير ان هذه الكلمة الأخيرة لم تأت مفاجئة، إنّما في تاريخ الرسالة كلّه كان الرسول (ص) يربط حروفها، وينسج خيوطها.

والعجيب ان هذه الكلمة الأخيرة كانت هي الكلمة الأولى في الرسالة أيضاً. مما يعني انها مركّب واحد، هو كل محتوى الرسالة.

منذ البيان الأول للرسالة، وحين دعا الرسول (ص) عشيرته للإسلام، قال لهم: " أيكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟

فقام علي وقال: " أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه ".

فقال: " انّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ".

وعلى طول الخط كان الرسول (ص) يقرّب الفكرة، ويشرحها، لقد كان يقول: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى ".

وكان يقول: " علي سيد المسلمين، وأمير المؤمنين، وامام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين ".

وفي عشرات المرات قال: (وليي) و (خليفتي) و (وزيري).

* * *

يبقى ان النظرية الشيعية تؤمن بامامة الاثنى عشر من أهل البيت، وليس علياً فقط، فهل عني الرسول (ص) بتأكيد ذلك والاشارة إليه؟

وقبل الاجابة نريد أن نقول:

ان النظرية الشيعية لا تحتاج في تصحيح تصوّرها من أهل البيت (ع) إلى نصوص من الرسول (ص)،زائدة على نصوصه في استخلاف علي (ع).

انه يكفي لتدعيم النظرية أن يكون الرسول (ص) قد أوصى إلى علي، ثم هو أوصى إلى الحسن، وحتّى تنتهي الوصية إلى الامام الثاني عشر، الواقع ان طريقة التفكير هذه هي عين الطريقة التي آمن بها الفكر السنِّي، واستخدمها لاثبات خلافة عمر، فرغم أنهم يؤمنون نظرياً بنظام الشورى الاّ انهم اعتبروا وصية أبي بكر نافذة، بوصفه ولي أمر المسلمين.

نفس الشيء يمكن أن تقوله النظرية الشيعية لتصحيح امامة الائمة الاثني عشر . عليهم السّلام .، بلا افتقار إلى نصوص مسبقة من الرسول (ص)، والتزام النظرية الشيعية بهذا الرأي يكون منطقياً جداً ومتناسقاً مع أصل رأيها في الامامة وأنها ليست بالشورى وإنّما هي بالنص. أمّا في الفكر السنيّ فالتزام هذه الطريقة يوقعهم في تهافت واضح مع نظام الشورى.

وعلى أي حال فالنظرية الشيعيّة قادرة على اثبات رأيها في إمامة الائمة الاثني عشر (ع) دونما ضرورة إلى اثبات النصوص الخاصة بإمامتهم من رسول الله (ص) ومضافاً إلى ذلك فنصوص الرسول (ص) وافية لأداء هذا الجزء من النظرية فقد ثبت بالتواتر أنه قال في أكثر من مناسبة: " انّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً ".

لقد كان (ص) يقول: " من أحبّ أن يركب سفينة النجاة ويتمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوال علياً بعدي وليعادي عدوّه، وليأتم بالأئمة الهداة من ولده فانهم خلفائي وأوصيائي وحجج الله على خلقه بعدي وسادات أمتي وقادات الأنبياء إلى الجنّة، حزبهم حزبي، وحزبي حزب الله، وحزب اعدائهم حزب الشيطان " وقال (ص): " مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف غرق " إلى غير ذلك من الأقوال الموجودة في كتب المذاهب، على أنه (ص) ذكر حتّى اسماءهم وعددهم، فقد ثبت باجماع أهل الحديث أنه قال: " يكون بعدي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش " وقال (ص): " لا يزال الإسلام عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة " وقد سئلت عائشة عن اسمائهم فقالت: أسماؤهم عندي مكتوبة باملاء رسول الله (ص). فقيل لها: فأعرضيه، فأبت.

وفي رواية أخرى انها قالت: اسماؤهم في الوصية [1].

رسول الله (ص) والبيت الهاشمي:

قال الأستاذ العقاد في كتابه (عبقرية الامام) ان الرسول الأكرم (ص) قد اتقى

1- لمزيد الاطلاع انظر الملحق من كتاب المراجعات.

(1)

العصبية الهاشميّة، وتجنّب أن يعينّ علياراًغم لياقته وجدارته .

ونحن مع الاستاذ في ان الرسول (ص) اتقى العصبية الهاشمية، وهو أزهوأطهر وأسمى من أن يلين العواطف والنزعات القبلية على حساب الرسالة أو باسم الرسالة.

لكن هل صحيح أن استخلاف علي (ع) هو وجه من وجوه العصبية للبيت والأسرة؟

ولو أنا أنكرنا الاستخلاف فهل سَلِمَ الرسول (ص) من شبهة التعصب القبلي الحقيقة ان استخلاف علي (ع) إنمّا هو على اساس القابليات لا القبليات.

لم يتدنَّس علي (ع) بالقيم والمفاهيم الجاهلية لحظة واحدة، وهذه مزّة انفرد بها.

وملازمته الدائمة لرسول الله، وهذه مزّة ثانية.

والإخلاص المتفاقم للرسالة، والمنقطع النظير، وهذه مزّة ثالثة.

كل هذه وهبته اللياقة لأن يستوعب الرسالة، ويجسدها في شخصه. ولأن يكون قمة الطليعة التي اهتم رسول الله (ص) بانشائها وتكوينها.

ولقد كان المسلمون يعرفون لعلي (ع) مقامه.

لقد كانوا ينظرون إليه كما ينظرون إلى النجم.

ولقد كانوا يقولون إذا جاء علي: جاء خير البريّة.

ولقد كانوا على عهد رسول الله يعرفون المنافقين ببغضهم لعلي.

لقد كان هو الواجهة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، الواجهة لا على أساس أنه من البيت الهاشمي، والاّ فان العباس أقرب منه نسباً، وأطول منه عمراً، وأكثر منه تجربة

1- عبقرية الاما: 138.

بالقياس الزمني، مع هذا لم يجعله الرسول واجهة، ولا خلفيّة.

لقد كان الواجهة على أساس المؤهلات، والكفاءات، التي اتضح لكل أحد أنه يملك منها ما لا يملكه الآخرون من البيت الهاشمي ومن غيره.

ولم يكن محمد (ص) بحاجة إلى أن يشرح هذه اللياقة، ويعلن عن هذه المؤهلات، إنّما كان المسلمون يشهدونها في كل موقف لعلي، ولقد كان ذلك مثاراً للحسد أي مثار، كما كان مثاراً لأن تنصب عليه الاحقاد التي وجدت في علي واجهة الرسالة وواجهة الرسول، وهم يحقدون على الرسالة ويحقدون على الرسول (ص).

وإذا كان يجب طرح العصبيات والقبليات فإنّه لا يجوز تضييع القابليات، وتفتيت المواهب على حساب مصلحة الرسالة والدين.

والعصبيّة ماذا تعني؟ انها تعني الميل والتوجيح لا على اساس الكفاءة، وكما كان يصنعه عثمان مثلا مع فتيان بني أمية وتقديمهم على سائر المهاجرين والأنصار وكل المسلمين.

أما إذا بقيت الكفاءة واللياقة هي الميزان، فلا مانع هنا من الميل إلى القريب وإلى الصديق وإلى الابن وإلى الصهر وإلى أي أحد، دون أن يكون ذلك عصبية وتعصّب، وانحياز وتحيزّ.

هذا هو ما كان من رسول الله (ص).

انظروا.. لقد كان هناك عمّه العباس، وكان عقيل، وكان جعفر، فهل صنع لهم ما صنع لعلي؟ ان منطق العصبية ينبغي أن لا يفرّق بينهم، كما كان عثمان مثلا لا يفرق بين بني أميّة. لكن محمداً (ص) خالف قوانين العصبية لأنه لا يعرف العصبية، ولا يسير على توجهيها.

على انه لو صحّ لنا أن نفهم الاستخلاف على أنه عصبية هاشمية، إذن لكان الرسول (ص) متورطاً في هذه العصبية حتىّ لو أنكرنا الاستخلاف.

أليس الرسول (ص) قد خصّ بني هاشم بالخمس، ونزل به القرآن؟ وأليس هو قد جعل أجر الرسالة مودة أهل البيت، ونزل به القرآن؟

أليس هو كان يقف ولمدة ستة أشهر على باب علي وفاطمة يقرأ قوله: **{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}**؟

إذن فهذه عصبية على منطق العقّاد.

ثم لنفرض انه لم يستخلف علياً; أليس قد طار به كما يطير بجناحين؟ أليس قال (ص) عن علي (ع) انّه: (سيد العرب) (مع الحق) (الايمان كلّه) (لحمه من لحمي ودمه من دمي) (عادى الله من عادى علياً) (من سبّ عليا فقد سب الله) (حبه ايمان وبغضه نفاق)، إلى مئات من هذه المقولات، يكررها الرسول (ص) في كلّ مكان ولأدنى مناسبة، فهل كان الاستخلاف أكثر من هذه كلها ليكون فيه عصبية ولا يكون في اعطاء هذه المقامات لعلي عصبية.

ثم أليس هو قال: " يكون بعدي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش "، فلماذا التعصب لقريش؟ إذا كنّا نفكرّ بطريقة العقادّ.

فكما لا يجوز التعصب للبيت الهاشمي، فإنّه لا يجوز التعصب لقريش ولا للعرب كلّهم، فهل يرضى العقاد لرسول الله (ص) أن يتعصب لقريش، ولا يرضى له أن يتعصّب للبيت الهاشمي.

الحقيقة انها ليست عصبية، حينما تكون الكفاءات هي المعيار الوحيد، وهذا هو ما كان من رسول الله (ص) في علي.

وكما ان الرسول (ص) حرص على أن يلتزم الموضوعية في علاقته من علي، كان حريصاً أيضاً على كشف هذا الجانب، وايضاحه من أجل دفع الظنون، والابهامات، والتشويهات التي يتذرع بها خصومه وخصوم الإمام علي (ع). ومن هنا فقد سجّل ظاهره ألفتت نظر معاصريه ونظر مؤرخيه.

فقد لوحظ انه تجنَّب عن تولية بني هاشم ولاية الأمصار وقيادة الجيوش . فيما

عدا علي (ع) بالطبع .وهذه ملاحظة صحيحة تاريخياً، فانه لم يثبت أن أحداً من بني هاشم تولى مصراً، أو قيادة جيش، فيما عدا جعفر بن أبي طالب في الهجرة إلى الحبشة، وفي معركة مؤتة التي استشهد فيها.

وهذه الظاهرة لاحظها عمر في حديث له مع ابن عباس.

وإذا بدت هذه الظاهرة غريبة التفسير في البداية، فانها تصبح واضحة ومتناسقة إذا أخذنا بعين الاعتبار ان الرسول (ص) كان يرفع علياً، ويجعله في صفّه أخاه، ثم نفسه،ولا يؤدي عنه الا ّهو،ولا يخلفه أحد في المدينة الا هّو، وليس للأمة مرجعا ً الاّ هو، وهكذا.

فهو يرفع علياً من جانب، ويسكت عامداً عن بني هاشم في الجانب الآخر،وهو يقود علياً بمقام ليس لأحد من بني هاشم نصفه ولا ربعه.

تفسير ذلك انه يريد ان يعطي للأمة المفهوم الصحيح لعلاقته من علي، كما يعطي هذا المفهوم لبني هاشم أنفسهم.

فليس هو عصبية،ولا نزوع إلى القبليات،ولا ميول عشائرية، حينما يستخلف علياً ويشيد بمقامه، إنمّا هي الكفاءة وحدها.

هكذا ستعرف الأمة .وان غالطلت أحياناً، ونافق معها المنافقون . لأنها لو كانت مسألة عصبية، فلماذا اختصّ علياً بهذا الصنيع وترك عشيرته عن عمد، بينما ولّى بني أمية وغير بني أمية، ممن ليسوا بأكثر كفاءة ولا اخلاصا لًلرسالة من سائر بني هاشم.

ستقول الأمة ذلك، وتعطي جوابه بوجدانها.

وهكذا سيعرف بنو هاشم أنفسهم، لكي لا يأخذهم الطمع، والطموح إلى المقامات العليا.

ومن هنا لاحظنا تاريخياً ان بني هاشم جميعاً كانوا ينادون باسم علي، ولم يخطر على بال أحد منهم أن ينازع علياً في مقامه من الرسول، حتّى العباس نفسه

الذي هو عمّ النبي، وشيخ من شيوخ قريش، لم يزاحم علياً ولم ينازعه، وانمّا قال له يوم مات رسول الله: " أمدد يدك أبايعك " هكذا بكل برود وبساطة،ولأنه لو أراد أن ينازع لم يصغ إليه أحد من الأُمة الذين عرفوه وعرفوا علياً.

والعجيب من العقاد حين أراد أن يدافع عن خلافة أبي بكر، ذكر ان الناس لا يتفقون على اختيار واحد من ثلاثة من بني هاشم "علي والعباس وعقيل".

هل سمعتم احداً دعا إلى العباس أو عقيل، وما أكثر الذين دعوا إلى علي، حتّى العباس نفسه دعا إلى بيعة علي قبل كل ّ الناس، وحين جاء أبو سفيان ليبايعه بعد أن يئس من علي، قال بسخرية واستهزاء: " يدفعها علي ويطلبها العباس!! ".

وهذه الأمة التي زعم العقاد انها ستختلف في الثلاثة، لماذا أهملت عقيل كل الاهمال يوم مات عثمان فبايعت علياً، ولم

تختلف بينه وبين عقيل.

لقد كان واضحاً عند الأمة وعند بني هاشم ان لعلي مقاماً من الرسالة ومن الرسول لا يدنو إليه أحد.

احتياطات أخيرة:

كل شيء قاله الرسول (ص) من أجل ترسيخ وجود الطليعة في الأمة.

وكل جهد بذله (ص) من أجل وضع القيادة بيد الطليعة، وبيد عليّ الذي يمثّلها، ويمثّل الرسول (ص).

لكن المواجهة التي يلقاها علي، والتي تراءت على الوجوه، وظهرت على الألسنة كانت صعبة صعبة، وضخمة ضخمة، إلى مستوى يتوجّس الرسول (ص) أن تقف أمامه بصراحة وجهاً لوجه، فتعرقل مساعيه، والا فما معنى ان يطمئنه الوحي قائلا: {وَاللهُ يعصمك من الناس} يوم أراد أن يعلن الكلمة الأخيرة باستخلاف علي، وينبغي أن نعرف هنا أن من يخافهم الرسول (ص) على مستقبل الدعوة ليس هم

المنافقون وحدهم. إنّما هم جماعة من المهاجرين والأنصار أنفسهم. جماعة من صحابة الرسول (ص)، هم الذين يخشى ويتوقع مواجهتهم له، واحباط مساعيه الأخيرة فيما يتعلق باستخلاف علي.

جماعة من الصحابة هم الذين حدّث عنهم في أكثر من مرة في حديث وقوفه على الحوض في المحشر وقدوم جماعة من أصحابه يذادون عن الحوض فيقول: أصحابي أصحابي فيُجاب: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك!!

* * *

وعلى أي فقد كان حريصاً على حلّ العقدة، وتذويب المشكلة، وسدّ الطريق على قوى المواجهة التي يتوقع ان تقف ضد علي.

كان حريصاً على ذلك حرصه على الرسالة كلها.

وكان من مظاهر هذا الحرص انه كان يضع لبنات المستقبل في اللحظة التي يضع فيها لبنات الحاضر، كان يذكر علياً، ويذكر الطليعة، ويوصي، ويُحذر، ويدفع، ويرغّب، ويقوم ويقعد بقضية علي، قضية مستقبل الرسالة.

وكان من مظاهر هذا الحرص انّه حين أعلن يوم الغدير عن استخلاف علي، أمر المسلمين جميعاً، أن يسلموّا عليه بأمرة المؤمنين.

كان يقصد إلزام الأمة، وتشديد وتأكيد التزامها بعلي، فهو لم يبين لهم الحقيقة فقط، وإنّما أخذها على لسان ويد وسمع كل واحد منهم.

خطوة تنبئك عن حجم الاهتمام، كما تنبئك عن الأزمة التي تدعو لهذا الاهتمام. وبالفعل فقد قامت الألوف المؤلفة، تبايع

علياً وتشهد الله على سمعها، وقلبها، ولسانها، ويدها، وتسلّم عليه بأمرة المؤمنين.

الرواية الشيعيّة تتحدّث كثيراً عن تصديّ الفئات غير الراغبة في علي حينما أعلن الرسول استخلافه، وتتحدث عن تصميمها وعزمها على نقض هذا القرار، وعن خطواتها في هذا الطريق من الآن وحتّى مات الرسول (ص).

لكنا نترك الرواية الشيعية، لأن هناك من لا يثق بها، ولأن بعضها فوضاً قابل للمناقشة في سنده، ولأننا آثرنا في دراستنا هذه أن نعتمد على ما ترويه مصادر أهل السنّة.

وعلى أي، فقد كان الرسول حريصاً على أن يضمن مستقبل التجربة الإسلامية. وكان من مظاهر هذا الحرص سرية اسامة، التي تبدو واقعة في غير موقعها الطبيعي، إذا لم نربطها بقضية الاستخلاف.

لقد ظهر الرسول (ص) مهتماً بهذه السريّة أشدّ ما يكون الاهتمام.

حتّى وفي حال المرض، بل وفي حال يخشى عليه، فقد كان يغمى عليه ساعة بعد ساعة، في هذا الحال كان حريصاً كل الحرص على أن يخرج الجيش.

ولقد كان أضخم جيش أشرك فيه وجوه المهاجرين والأنصار، وفيهم أبوبكر وعمر باجماع المؤرخين، وهو أمر لم يعهد من قبل، وبدا كما لو كان شيئاً مقصوداً متعمداً.

واغرب من كل ذلك انه اعطى قيادة الجيش لأسامة، وهو شاب لم يتجاوز عمره عشرين سنة بإجماع الروايات.

إذن أين المهاجرون؟ أين الأنصار؟

ولقد اعترضوا عليه (ص) حين أمَّر هذا الشاب، فخرج مغضبَاً، وهو معصبَّ الرأس من المرض، فقال: " ما قالة بلغتني عن بعضكم في تأمري اسامة، ولئن طعنتم في تأميري أُسامة، لقد طعنتم في تأميره أباه من قبله، وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة، وان إبنه من بعده لخليق بها ".

حقاً كان اسامة خليقاً، لكن أين الآخرون؟ هل فقدوا اللياقة؟ ولماذا يتقصد الرسول أن يجعل أسامة لا غير؟ هل من الجدير أن تعطى القيادة لشخص لا يرغب فيه الجيش، وهو كفوء لكنه ليس بأكفأ الموجودين قطعاً. فهناك أصحاب المراس

الطويل في الحرب.

هنا يقولون:

" كان لأسامة ثأر عند هؤلاء العرب الذين قتلوا أباه يوم مؤتة، وعسى أن يكون النبي (ص) قد لاحظ هذا الثأر حين أمَّر اسامة على حداثة سنّه، وحين جعل في جيشه خيرة أصحابه "[1].

ولكن هل صحيح ما يقولون؟

أنا أرى أن الثأر يعطي الحماس والاصرار والعناد، لكن هل هذا كل شيء في القائد. القائد الذي يمشي تحت لوائه مشايخ

المهاجرين والأنصار وعينة جيش الإسلام، القائد الذي يأمر ويوجّه ويخطّط، ويتقدم أو يتراجع أو ينحرف، القائد الذي يدخل قلب المعركة، ويواجه العدو بنفسه لا بجيشه فقط.

مثل هذا القائد كم يجب أن يكون بطلا ذا مراس، شجاعاً ذا حنكة، فهل الثأر يعطي كل ذلك؟؟ وأسامة لم يتجاوز العشرين، نعم لم يتجاوز العشرين؟!!

وهؤلاء الذين ضحّوا في الإسلام ألا يملكون مثل حماس أسامة؟!

ثم في أخطر معركة كيف تعطى القيادة لمن لا يثق به الجيش،ولا يرغب فيه؟ أليس قد اعترضوا على رسول الله في ذلك؟

ثلاثة غرائب في هذه السريّة تحتاج إلى تفسير:

اهتمام الرسول بها وهو في أشد حالات المرض.

واشراكه فيها وجوه المهاجرين والأنصار حتّى لم يبق منهم أحد.

وتأميره أسامة وهو شاب حَدِث السن.

وهناك شيء غريب رابع:

تلكؤ الجيش باستمرار، مهما حثَّهم الرسول وأمرهم بالاسراع، حتّى كان

1- الشيخان: 15.

ينادي: " جهّزوا جيش أُسامة، نفذوا جيش أُسامة، لعن الله من تخلفَّ عن جيش أسامُة "وهم يتخلفون، يتأخرون.

لماذا إذن هذا التخلّف وهم يصرّون عليه؟ هل كانوا لا يصبرون على فراق الرسول (ص)؟ إذن كيف يزعجونه ويخرجونه من فراش مرضه، محموماً، مألوماً، معصبّاً، ويصعد المنبر، وليس الحال حال خطابة، فيقول ما سمح له المرض أن يقول ثم يرجع؟!

أم كانوا يخافون على الأمة بعد الرسول (ص)؟ يخافون على الخلافة بعد الرسول كيف تكون؟ ولمن تكون؟

نعم، ذلك ما أرادوه، وأراد الرسول (ص) خلافه.

أراد أن يمهّد الأرض لعلي، حين تكون المدينة خالية ممن يتوقع أن يواجهوا علياً، وهؤلاء تحت قيادة أسامة مأمورون، أما أسامة فكان هو القائد لئلا يطعنوا بعد ذلك في خلافة علي وهو أكبر منه سناً، وكان هو القائد لا شيوخ قريش; لأنه لا يتوقع أن يكون أسامة معارضاً لعلي، وطالباً الخلافة لنفسه.

وبذلك تنحلّ كل الغرائب وتبدو طبيعية، أليس هي تَحَقّق المطلوب؟

* * *

وبمقدار ما تبين لنا هذه القصة حرص الرسول (ص) على وضع الخلافة بيد علي (ع)، تبين لنا أن قوى المعارضة بدأت تتحرك بسرعة، وتصعّد تحركاتها، لأن اللحظات حاسمه ودقيقة.

وكان من مظاهر حرص الرسول قصة الكتاب، فالمؤرخون يذكرون أنه " لما حُضر رسول الله (ص) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي: هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده.

فقال عمر: ان النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما اكثروا اللغو والاختلاف عند النبي، قال لهم (ص): قوموا ".

فكان ابن عباس يقول: " ان الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم ".

يكاد يتفق الباحثون، كما أن كل القرائن تدل على أن موضوع هذا الكتاب أمر يتعلق بالخلافة، وبمستقبل الأمة القريب.

كما أنه لا يمكن أن يكون المقصود بيان حكم شرعي، فأي حكم شرعي هو الذي "لا تضلوا بعدي أبداً لو تمسكتم به" وهل يحتاج الحكم الشرعي إلى دواة وكتف؟ وأي حكم شرعي هذا الذي يقرل في ساعة احتضار الرسول ولم يقرل من قبل؟

إنّما هو أمر يتعلق بشأن من شؤون الدولة، ونظام الخلافة. وتدل القرائن أيضاً على أنه أراد الوصية لعلي، أراد تأكيد خلافته وتعزيزها بوثيقة كتبية لا تقبل الشك والارتياب، أراد أن يقطع الطريق على من سينازع علياً في أمر الخلافة.

ما هي هذه القرائن..؟

أولا: تُجمع مصادر التاريخ والحديث على ان الرسول كان يقول قبل هذه الأيام: " انّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ".

وكان يمهّد لهذا القول دائماً بقوله: " أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً " أو " انيّ أوشك أن أدعى فاجيبُ " وثالثة " انّي مقبوض " فهو إذن يحدثّهم عن وصيته، وعن كلمته الأخيرة لهم لأنه يوشك أن يدعى فيجيب.

ووصيّته هذه " لا يضلوا بعدها أبداً " ما ان تمسكوا بها.

وهو في قصة الكتاب أيضاً يريد أن يوصي وصيةً لا يضلوا بعدها أبدا كما

قال (ص). إذن أليست الوصية بالكتاب هي نفس الوصية بالمقال.

فهو بالأمس يقول: " انّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ".

وهو اليوم يقول: " آتوني بدواة وكتف اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً " عجباً، هل هو شيء آخر غير الوصية بالكتاب والعترة، إذن فما هي الحاجة إليه مع وجود الكتاب والعترة؟ أو هو نفس الوصية بالكتاب والعترة أراد الرسول أن يؤكده

بالكتاب حسماً لاحتمالات النزاع؟

ثانياً: روى البخاري بعدما نقل قصة الكتاب، ان ابن عباس كان يقول:

"وأوصى .رسول الله (ص) . عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، قال: ونسيت الثالثة...!! ".

كيف ينسى حبر الأمة هذه الوصية، ولو نسيها فهل نسيها كل من حضر مجلس رسول الله (ص) يومذاك، أو ان ابن عباس يجامل الخلافة الحاكمة، ويتجنب إثارتها كما عرف عنه؟

أليست الوصية الثالثة هي الوصية بالعترة، الوصية لعلي؟! والاّ فما معنى أن يجامل ابن عباس في تناسيها.

ثالثاً: حتّى عمر نفسه يحدثنا عما قصد الرسول (ص) كتابته، فيقول في حديث دار بينه وبين ابن عباس:

" ولقد أراد .رسول الله . في مرضه أن يصرح باسمه . علي . فمنعته من ذلك ".

ونحن نعرف ان عمر هو الذي قال: ان النبي قد غلب عليه الوجع، ومنع من كتابة الكتاب قائلا: " حسبنا كتاب الله ".

رابعاً: الذي يلفت النظر في هذه القضية اصرار جماعة من الحاضرين على منع رسول الله من كتابة الكتاب، وبمقدار ما كان الرسول مهتماً باملاء هذا الكتاب

كانت هذه الفئة حريصة على منعه.

ولقد بدا عمر كما لو كان مستعداً لأن يصنع شيئاً كثيراً في هذا السبيل.

لقد ردّ رسول الله، وأحدث خلافاً بين الحاضرين، ولم يتنازل أبداً، وحين نادت نساء النبي من وراء الستر: " ألا تسمعون ما يقول رسول الله (ص)؟ كان المجيب هو عمر نفسه، فقد قال: انكن صويحبات يوسف إذا مرض عصرتن أعينكنّ وإذا صحّ ركبتن عنقه "وأثار ذلك رسول الله فقال وقد أثقله المرض " دعوهن فانّهن خير منكم ".

هل كان حقاً ان النبي قد غلبه الوجع فهو لا يعني ما يقول؟

ومن غلبه الوجع كيف يتحدّث بمثل هذا الحديث ثم يسمع مقالة بعض الحاضرين ويردهم " انهن خير منكم "، ثم يقول بعد أن كثر الخلاف: " قوموا عني انه لا ينبغي عند نبي نزاع " ثم يؤتى بدواة وكتف فيقول: " أبعد الذي قلتم؟! ".

وهل كان عمر جاداً في قوله: " حسبنا كتاب الله ".

إذن أين كان عن هذا المنطق يوم كان رسول الله يقول: " يوشك أن ادعى فأُجيب واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ".

ألم يقل: حسبنا كتاب الله، أوَ كان النبي لا يعرف ذلك؟

ان شيئاً آخر هو الذي دعا بعض الحاضرين لإثارة الخلاف، ولقد كان متوقعاً أن يحدث ذلك بعدما عرفنا شدةّ اصرار بعض الرجال من قريش على أن لا يلي علي بعد رسول الله (ص)، وهؤلاء هم الذين خاف الرسول (ص) فتنتهم يوم الغدير

فنزل الوحي قائلا: "والله يعصمك من الناس ".

إنّ عمر نفسه يحدثّنا عمّا دعاه إلى المنع حين قال: "ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعته من ذلك ".

ولولا ذاك فما الذي يدعو للمنع؟

لقد كانت فرصة أخيرة أراد رسول الله (ص) أن يربحها لمستقبل الرسالة بوضع القيادة بيد الطليعة، بيد علي (ع) قمة الطليعة، لكن خصوم علي كانوا هنا أيضاً.

مراحل التاريخ الشيعي

1 . مرحلة عصر الأئمة (ع)

الدور الأول: بناء قاعدة التشيّع

الدور الثاني: بناء الاطار التفصيلي

الدور الثالث: دور تحصين القواعد الشيعية

2 . مرحلة عصر ما بعد الأئمة (ع)

مراحل التاريخ الشيعي

يمكن أن نقسم التاريخ الشيعي إلى مرحلتين:

1 . مرحلة عصر الائمة (ع).

2 . مرحلة عصر ما بعد الائمة (ع).

تبدأ المرحلة الأولى من وفاة الرسول (ص) وانتقال القيادة الشرعية إلى الإمام علي (ع) ومروراً بالأئمة من بعده، وانتهاءاً بالغيبة الكبرى للامام الثاني عشر (ع).

ومعنى ذلك ان هذه المرحلة تستغرق 320 عاماً، من 10 للهجرة حيث وفاة الرسول (ص) وحتّى سنة 329 هـ حيث الغيبة الكبرى للامام المهدي.

واعتبار هذه الفترة مرحلة مستقلة تاريخياً يعتمد على أساس طبيعة الخطر الذي كان يواجه الخط الشيعي، وطبيعة المهمة

التي انساق الائمة إلى تحقيقها.

لقد كانت هذه المرحلة هي مرحلة تحصين الخط الشيعي، والانتصار على مؤامرات التصفية باختلاف اشكالها.

سواء المؤامرات بصيغة القمع والإرهاب، كما في فترة حكم معاوية

الصفحة 83

والحجاج أو المؤامرات بصيغة فتح المدارس المذهبيّة الأُخرى، ورسم الخطوط المناوئة كما في العهد العباسي، أو المؤامرات الداخلية بغاية تحريف مفاهيم الخط وجوّه عن طريقه الأساسي، كما في حركة الغلاة والباطنية.

أو الانشقاقات داخل المذهب التي كانت تهدد وجود المذهب كلّه كما في انشقاق الاسماعيلية.

المعركة التي كان يخوضها المذهب في هذه المرحلة هي معركة الوجود والعدم، الموت والحياة، وكانت مهمة زعامة المذهب، المتمثلة في الائمة من أهل البيت (ع) هي تحصين الخط، واحباط كل المؤامرات التي تستهدف وجوده.

وبانتهاء هذه المرحلة كان الخط الشيعي قد حصل على وثيقة البقاء والاستمرار، وسقطت كل توقعات واحتمالات الموت، وكانت كل المخاطر والمشاكل التي تواجه الخط بعد هذه المرحلة، وفي عصر ما بعد الائمة، غير قادرة على قلع الخط من اساسه وتهميشه، مهما بلغت خطورتها وضراوتها.

انّ (320) عاماً، كانت كافية لتثبيت أُصول المذهب، وامتداد جذوره في أرض الأمة إلى مستوى لا يمكن اقتلاعها.

وفي خلال (320) عاماً، أمكن الصمود أمام كل الهجمات، والثبات أمام كل المؤامرات، والخروج بسلامة ونقاء من معارك التصفية، أو التحريف.

كما فشلت بالتبع مختلف صيغ التآمر على الوجود الشيعي، وانتقلت الحركة المضادّة والمعادية إلى صيغ تستهدف تقليص هذا الوجود، والاستلاب منه، والنيل من كرامته، ولكنها على أي حال اصبحت غير قادرة على إعدام هذا الوجود وتصفيته.

هذا التصور نأخذه هنا مفروغاً عنه والأبحاث الآتية هي الكفيلة باعطاء الصورة التفصيلية له، وعلى ذلك أمكن اعتبار عصر الائمة مرحلة تاريخية لها

الصفحة 84

استقلالها وتميّزها.

وقيادة المذهب خلال هذه المرحلة كانت بيد الائمة (ع)، وكانت تنتقل من أحدهم للآخر على اساس الوصية من الامام السابق.

وقد سبق أن شرحنا [1] في المقدمة فلسفة هذه الوصية، ولماذا كانت تختص بواحد من أبناء الامام السابق.

أمّا هنا فتواجه هذا السؤال:

لماذا كان الائمة إثني عشر؟ ولماذا استمرّ الائمة على منهج الوصية وتعيين الامام اللاحق إلى اثني عشر إماماً، ولم تنقطع هذه الطريقة من قبل، ولم تستمر لما بعد؟

وكانت الامامة خلال هذه المرحلة لرجال من أهل البيت (ع) لا تتجاوزهم، أمّا في عصر ما بعد الائمة فلم تتبع طريقة التعيين، ولم تنحصر في ذرية أهل البيت. فلماذا؟

الجواب[2] عن هذا السؤال نستلّه من طبيعة المرحلة، وطبيعة المشاكل التي كانت تواجه المذهب خلالها.

ولقد قلنا ان مشاكل ومؤامرات عصر الائمة كانت تهدد وجود المذهب، وكانت بمستوى . بالقياس إلى وضع التشيع يومذاك . قادرة على أن تعصف بالخط وتقتلعه.

ومن هنا كانت الحاجة إلى قيادةواعية غاية ما يكون الوعي، بصورة غاية ما

---

1 - اعتمدنا في هذا الشرح منهج التحليل التاريخي بهدف تدعيم معتقداتنا القائمة بالأصل ـ في موضوع الإمامة ـ على أساس التعبّد ومنهج اعتماد النص، ويجدر الإشارة إلى أن منهج التحليل التاريخي قد لا يؤدّي إلى نتائج يقينية، وربّما أمكن تقديم شروح أخرى.

2 – نعتمد في هذا الجواب على المنهج السابق، وبتأكيد نفس الملاحظة التي سجّلناها عليه.

يكون التبصر، مملوءة من كلّ الجوانب، سليمة من كل الأخطاء سواءاً في النظر أو في الممارسةوالتخطيط. لأن أي خطأ في هذه المرحلةربّما أتى على وجود المذهب كلّه و نسفهوأيةزلةّ في هذه المرحلةربما جرتّ بالمذهب إلى منتهى الواهية، وهشّمته.

في بعض قطعات هذه المرحلة كان المذهب بحاجة إلى وضع إطاره التفصيلي، ورسم محتواه الداخلي كلاًّ، وهذه مهمّة لا يقدر عليها غير الائمة من أهل البيت الذين استوعبوا المذهب كلّه كما شرحنا في المقدمة.

وفي بعض قطعات هذه المرحلة كان المذهب يعيش انشقاقات داخلية عريضةوعميقة، يتزعمهارجال لهم تاريخ شيعي طويل، ولم يكن التغلب على هذه المشكلة ممكناً الاّ عن طريق وصية الامام السابق للإمام اللاحق.

وفي بعض فصول المرحلة ظهرت حركات مزيّفة داخلية، والوسط الشيعي لم يكن من النضج بمستوى يقدر على فضحها، وتعريتها، كان لابدّ من وصية تحددّ الامام اللاحق ويكون بيده مجرى التشيعّ، وقمع حركات التحريفوالتزييف ومن هنا وجدنا انّ الحركات المنشقة في داخل الصف الشيعي، والتي إبتعدت عن قيادة أهل البيت، فشلتوانهارت.

كثير من تلك الحركات ماتت إلى الأبد، ولم يصلنا الاّ إسمها.

وكثير من تلك الحركات فقدت المحتوى الحقيقي للتشيع، والهدف الحقيقي للتشيع فعادت حركات مؤرّخة، وذات صيغ وقوالبرخيصة، ولا قادرة على الاستمرار بجدارة، أو تقديم الصورة الحقيقية للاسلام.

نذكر منها الاسماعيلية، والزيدية.

فرغم انهما مازالتا في الوجود، لكن كل أحد يعرف مقدار ما أصابهما من التزويغوالتحريف.

فالمذهب الزيدي اليوم لا يختلف عن مذاهب أهل السنة، ومصادره العلمية

التشويعية هي مصادر السنّة في المعظم.

والمذهب الاسماعيلي تحوّل إلى اتجّاه باطني غامض ومعزول.

والعالم الإسلامي اليوم وغير الإسلامي يعرف ويقول انّ المعبرّ الوحيد عن التشيع هم الشيعة الاثنا عشرية، وبجهود ومفاهيم هؤلاء أصبح واضحاً أن التشيّع هو الخط الآخر في الإسلام، والمقابل للخط السنيّ.

الانشقاقات التي إبتعدت عن بعض الأئمة من أهل البيت ماتت أو تفرَّغت، ومن ذلك نعرف المضمون الحقيقي للحديث الشريف: " من لم يؤمن بأحدنا كان كمن لم يؤمن بجميعنا ".

وعلى أيّ فقد كانت المرحلة تفرض النص على امام معصوم من أهل البيت (ع)، فهؤلاء الائمة سيثبتّون اصول المذهب، ويتغلبون على كلّ المشاكل والمؤامرات والخذلان: " لا يضرهم من خذلهم " كما جاء في الحديث الشريف وهؤلاء إثنا عشر فقط، لأن المرحلة لا تطلب اكثر من ذلك وهكذا كان..

فقد تسلسلت الوصية من امام إلى امام، حتّى انتهت مرحلة الخطر على الوجود، وأمكن ان تعطى القيادة بيد فقهاء الشيعة، والطليعة منهم، من حيث ان الخطأ هنا ممكن التدارك، ولا يخاف منه على وجود المذهب كلّه.

حينذاك انتهى عهد التعيين والوصية، وكان قد اشترك اثنا عشر اماماً في قيادة المذهب خلال تلك المرحلة. ولعله إلى ذلك يشير الحديث النبوي الشريف: " يكون لهذه الأمة اثنا عشر خليفة قيماً لا يضرّهم من خذلهم كلهّم من قريش ".

ولو قدّر ان المذهب كان ما زال في مرحلة الخطر على الوجود، وفي معركة الموت والحياة، إذن لكانت الوصية تستمر إلى إمام ثالث عشر ورابع عشر وهكذا.

ومن هنا وجدنا ان الامام الثاني عشر وهو في غيبته الصغرى كان يعيّن نائبه

بأسمه، وهكذا إلى أربعة نوّاب. وعندئذ ترك الأمر إلى الشيعة أنفسهم وانتهى عهد التعيين والوصية. وانتقلت الزعامة الحقيقية إلى علماء الشيعة، ومن هنا نجد انّه خلال الغيبة الصغرى والتي استمرّت (70) عاماً، كانت القيادة الحقيقية للامام الثاني عشر المختفي، وكان النوّاب هم الواجهة وليسوا هم القادة حقيقة.

لماذا؟

سيأتي تحليل ذلك بالتفصيل، أمّا هنا فنذكر الجواب مختصراً وفقاً لمنهج التحليل التاريخي المشار إليه.

الجواب ان المذهب مازال يعيش مرحلة الخطر على الوجود، ومازال الوسط الشيعي غير قادر على التماسك وحده أمام المشاكل المرهقة، والامام أيضاً غير قادر على الظهور، فكان الحلّ أن تبقى القيادة الحقيقية بيده ويكون النواّب هم الواجهة إلى حين تنتهي مرحلة الخطر على الوجود، وربثما يستعد الشيعة لاستلام زمام القيادة بأنفسهم.

ولذا اعتبرنا هذه الفترة . فترة الغيبة الصغرى . داخلة في مرحلة عصر الائمة، لأن القيادة الحقيقية كانت للامام، من حيث كان الخط يحتاج إلى امام. ولو قدّر مثلا ان التشيع وهو في عهد الامام الثاني عشر قد حصنَّ وجوده، وتجاوز احتمالات

الضياع والفناء، إذن لم تكن حاجة إلى امام معصوم بعده، بل كانت الطليعة الشيعية هي التي ستتولى الزعامة.

المرحلة الأولى

مرحلة عصر الأئمة (ع)

يمكن أن نصنِّف نشاطات الشيعة في هذا العصر إلى نشاطات على الصعيد الإسلامي العام، ونشاطات على الصعيد الشيعي خاصة، وهي النشاطات المرتبطة بشؤون ومسؤوليات الخط نفسه.

ورغم ان دراساتنا تتناول التشيع عموماً في نشاط قادته وأتباعه وخصومه، الاّ انّ الائمة من أهل البيت (ع) من حيث كانوا هم محور النشاط والحركة، وكانوا هم أصحاب الكلمة في توجيه وتسيير الخط كلّه، من هنا ستشغل مواقف الائمة (ع) الجزء الأكبر من موضوع دراساتنا.

والواقع انّ مواقف الائمة (ع) في هذا العصر كانت مختلفة من حيث مركز الاهتمام، ومن حيث كيفية التصرف، تبعاً لاختلاف ظروف هذا العصر، واختلافات حاجات المذهب من مرحلة إلى مرحلة أخرى.

أدوار ثلاثة:

غير انّا لو لاحظنا نشاطاتهم على الصعيد الشيعي خاصّة أمكن أن نكتشف ثلاثة أدوار تستغرق هذا العصر كلهّ.

الدور الأول: بناء القاعدة:

ويشترك في هذا الدور كل من الامام علي،

والحسن، والحسين (ع)، حيث كان الهدف منصباً بالأساس على اثبات وتركيز الخط الشيعي مفهوماً وممارسة، واعتباره الممثل الحقيقي والمستوعب للاسلام، واعتبار قيادته هي القيادة الإسلامية الشرعية. ويستغرق هذا الدور 05 سنة، بدءاً من وفاة الرسول (ص) وحتّى سنة 16 هـ حيث مقتل الإمام الحسين (ع).

الدور الثاني: بناء الإطار التفصيلي:

وبعد اثبات أصل الخط، واطلاع الأمة على وجوده وعلى موقعه من الرسالة، يأتي الدور الثاني حيث يكون الهدف منصباً منه على بناء المحتوى التفصيلي للخط، والتعبير عن الإسلام واحكام الإسلام بالمنظار الشيعي. بعد أن برزت في الساحة مدارس فقهية وعقيدية أخرى، شوحت الإسلام بطريقتها. ويشترك في هذا الدور كل من الإمام السجاد، والباقر، والصادق، والكاظم. ومعنى ذلك انّ هذا الدور يستغرق 122 عاماً. مبتدأ من حين شهادة الإمام الحسين 16 هـ ومنتهياً بوفاة الإمام الكاظم

183 هـ.

الدور الثالث: دور تحصين وتوسيع القواعد الشيعية الشعبية:

ويشترك في هذا الدور كل من الإمام الرضا، والجواد، والهادي، والعسكري، والامام الثاني عشر في غيبته الصغرى المنتهية سنة 329 ، ومعنى ذلك انّ هذا الدور يستغرق 461 عاماً.

وفي هذا الدور أصبح الخط الشيعي مستكملا جوانبه النظرية وبناءه المدرسي، ويكون قد احتل موقعه بوصفه الخط البديل للخطوط الحاكمة أو التي تتعامل وتتعاون مع الحكم.

فلم يبق أمام الخط الاّ أن يحصنّ قواعده الشعبية، وينقذها من خطر الانشقاقات والتحريفات الداخلية، ومن خطر العزلة والتقوقع، ويرفعها إلى مستوى تصبح قادرة على الاستمرار والديمومة وملأ الفراغ القيادي بعد الائمة المعصومين (ع).

وهذه ثلاثة أدوار يمكن أن نوزّع عليها مرحلة عصر الأئمة. وبودّي أن أبينّ هنا

بعض نقاط:

أولا: انّ هذا التوزيع ليس حدياً تماماً، بمعنى ان الانتقال من دور إلى دور ليس بنحو من الطفرة المفاجئة، وانما يأتي تدريجياً أيضاً وخلال أعوام، وعلى ذلك فحينما نعتبر الإمام السجاد ابتداء الدور الثاني، ينبغي أن نفهم مقدماً أنه كما يمثل الدور الثاني هو يمثل مرحلة الانتقال أيضاً، ويعيش فترة ما بين الدورين، وهكذا حينما نعتبر الإمام الرضا بداية الدور الثالث. هو أيضاً عاش نهايات الدور الثاني، ومرحلة الانتقال منه إلى الدور الثالث.

والواقع ان هذه الظاهرة أمر طبيعي في كل تقسيم تاريخي، من حيث ان الحد الفاصل بين مرحلتين أو دورين لا يمكن أن يكون أمراً آنياً وغير متدرج، وعلى ذلك فإنّ الانتقال من مرحلة إلى مرحلة يحدث عبر فترة زمنية تعيش الصراع قد تطول وقد تقصر.

ثانياً: إنّنا في هذا التوزيع لاحظنا طبيعة النشاطات المرتبطة بالخط الشيعي خصوصاً. وهذا لا يعني انعدام النشاطات الإسلامية العامة.

فقد قلنا مسبقاً انّ نشاطات الشيعة بقيادة أهل البيت (ع) كانت في مجالين. المجال الشيعي الخاص، والمجال الإسلامي العام. ونحن في التوزيع إلى الأدوار الثلاثة لاحظنا طبيعة النشاطات في المجال الأول. وسنذكر ضمناً ما يتعلق من النشاط بالمجال الثاني.

ثالثاً: لم نلحظ في هذا التوزيع طبيعة الموقف السياسي، وطريقة التعامل مع الحكم القائم في كل دور، وسنذكر تحليل ذلك لدى دراستنا الأدوار الثلاثة تفصيلا.

الدور الأول: بناء قاعدة التشيّع 10 . 61 هـ

إذا كان هذا الدور هو دور بناء قاعدة التشيع، ووضع الحجر الأساس، فذاك يعني بالوجه الآخر له رفض الخلافة الحاكمة واعتبارها خلافة غير شرعية، كما انّ الطليعة التي رعاها الرسول (ص) وبناها بغاية استلام زعامة التجربة بعده والتي أقصيت عن الحكم ظلت تحتفظ بخطها ووجودها ولم تتنازل عن اعتبار نفسها الممثل الحقيقي للإسلام، وظلت على الدوام تحمل مسؤولية التجربة كلها، ومن هذا المنطلق عُرفت بمعارضتها للخلافة القائمة، لكنّها المعارضة الإيجابية التي تحمل معنى التصحيح والتعديل والتوجيه.

وهذه الظاهرة ملحوظة ومسجّلة حتّى في أيام الخلافة الراشدة، التي قد يبدو أنهّا أقرب إلى واقع الإسلام من الحكومات التي جاءت بعدها.

فقد كان واضحاً انّ الطليعة التي تدور حول علي (ع) باتت ساخطة وغير قانعة بالخلافة التي تمخّضَ عنها مؤتمر السقيفة، وقد عبّرت عن سخطها في أكثر من مجال، وظلت تعطي لنفسها فقط حقّ قيادة التجربة الإسلامية.

هذا هو ما يدعونا للتساؤل عن مبررات المعارضة.

والإجابة عن هذا السؤال تكفينا لمعرفة السبب في اصرار الطليعة الشيعيّة على عدم التنازل عن حقهّا ورأيها في الخلافة، واصرارها على تدعيم خطها بوصفه الخط الحقيقي للإسلام.

مبررات المعارضة:

وحينما نتحدث عن مبررات المعارضة، فإننا نتحدث عن خلافة السقيفة وتقييم المعارضين لها، نقاط القوة فيها ونقاط الضعف، ايجابياتها وسلبياتها، قدرتها على مواجهة الصعاب التي تحيط بالأمة وبالرسالة أو عدم قدرتها، وهكذا لياقتها في تسيير التجربة الإسلامية، ومواصلتها أو عدم لياقتها.

ذلك أن المعارضة هي تعبير عملي عن وجهة نظر الطليعة الشيعيّة في خلافة السقيفة وطريقة فهمها لها. إذن فالحديث عن مبررات المعارضة حديث بالأصل عن تقييم الطليعة الشيعية لخلافة السقيفة.

كما انّ هذا الحديث هو في الحدّ الآخر له حديث عن الطليعة، وعن علي قمة الطليعة ومحورها وامامها. حديث عن لياقتها في زعم التجربة الإسلامية، وقدرتها على تكسير كل الأطواق المحيطة بالرسالة، والتغلب على كل الصعاب التي تنتظر المسيرة.

إذن فهذا البحث بحسب الحقيقة موازنة بين الطليعة المعدّة أساساً لاستلام الزعامة، وبين الخلافة التي إنبثقت عن السقيفة، والتي قدّر لها أن تغلب وتزعم على أن نقاط القوة في خلافة السقيفة غير قابلة للشك، ولا بحاجة إلى إيضاح.

فهم صحابة عاصروا الرسول (ص) سنيناً طويلة، لازموه فيها واستفادوا منه. كما أنهم ذوو مقدرة إدارية جيدة، وفقتّهم

للتغلب على صعاب كثيرة. وهم بعد ذلك وقبله أصحاب مقام اجتماعي يوفّر لهم فرصة اكتساب الأصوات، وتوحيد

الكلمات، لكن مهمة تقييم خلافة السقيفة، والتعرّف على وجهة النظر الشيعية لها، والتي دفعتهم إلى الرفض والمعارضة، تدعونا إلى النظر في الصفحة الأخرى لخلافة السقيفة، أي في سلبياتها، ونقاط ضعفها إن وجدت، والنظر فيما إذا كانت هذه السلبيّات موجودة في خلافة النص . أقصد علياً . أم لا.

ومن هنا سنهتم بدراسة هذا الجانب.

وإذا كانت هذه الصراحة في البحث ثقيلة على بعض القلوب، وبعض العقول، فان ذلك يدعوني لأن أصدِّر هذا البحث بأروع وأصدق كلمة قالتها خلافة السقيفة نفسها.

فقد قال أبوبكر (رض) يوم تولى الخلافة:

" انّي قد وليت عليكم ولست بخيرِكم، وانٍ لي شيطانا يَعتريني فإن أصبت فأطيعوني، وانٍ أخطأت فقوموّني ".

والذي أتمناه لكل الباحثين والقارئين أن نترفع عن المغالاة في الأشخاص، وعن الوقوع تحت تأثير العصبيات المذهبية، وأن ندخل إلى البحث بروح أكثر موضوعية وحيادية ونزاهة.

طبيعة المرحلة:

ويكون من الضروري من أجل الخروج بتقييم معمّق لخلافة السقيفة أن نفهم طبيعة المرحلة، وما هي حاجات ومتطلبات الرسالة فيها. وهل كانت خلافة السقيفة بمستوى مرحلتها أم لا؟

وهنا يصح القول:

إنّ الرسالة كانت ما زال في مرحلة البناء.

وأقصد من هذا انّ الأمة لم تبلغ مرحلة التشبع التام بمفاهيم وقيم الرسالة، وفترة عشرة سنوات متعبة ومجهدة بالحروب والغزوات لم تكن تتسع لترسيخ

وتعميق الرسالة الضخمة في نفوس معتنقيها.

ولقد قلت سابقاً ان عملية التغيير الجذري لانسان الجاهلية، وقلبه إلى انسان عالمي منفتح، هذه العملية التي كانت هي مهمة الإسلام تحتاج إلى عمر أطول وجهد أكبر، ورغم انّ الجيل الذي صنعه الرسول (ص) ضرب أروع الأمثال في التضحية والفداء، الاّ انّه يبقى مجال للقول بأن فقاعات المنطق والتفكير والخلق الجاهلي ما زال كامنة في أعماق الأعماق. وانهّا لتطفو على السطح في كثير من الأحيان.

انّه إلى الأخير كانت اعتراضات بعض الصحابة على الرسول (ص) مصابة بطريقة التفكير الجاهلي القبلي الضيق، وإلى الأخير كنّا نشاهد . ولو نادراً . الراسب الجاهلي يعبرَّ عن وجوده في بعض مواقف وآراء للصحابة. ومهما بالغنا في تمجيد

وتعظيم الصحابة فإنه لا يجوز أن نبلغ بذلك درجة الغلو.

وإذا كنت بحاجة إلى استشهاد على ما قلت فإنّه ليس أوضح شهادة من الانحراف العريض العميق الذي جرف عدداً كبيراً من الصحابة فيما بعد فإذا الصراعات على المناصب، وإذا الركض وراء الكنوز، وإذا الاغراق في متع الحياة، كل ذلك يظهر في الصحابة أنفسهم، وبعد لم يمض على وفاة الرسول (ص) ربع قرن.

حتّى كان أبوبكر نفسه يقول للمهاجرين:

"رأيتم الدنيا قد أقبلت، ولمّا تقُبل وهي مقبلة حتىّ تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وحتىّ يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الانربي كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان... ".

وكان علي (ع) يقول:

"واعلموا انكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة اخراباً، ما تتعلقون من الإسلام الا بّإسمه، ولا تعرفون من الإيمان الاّ رسمه، تقولون العار ولا النار كأنكم

تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه... ".

وربما يكون عرض هذه الكلمات بلا لزوم، بعد أن كان الرسول (ص) ينوّه بهذه الحقيقة، ويعلن عن توقعه للانحراف والانحدار في حديث ذود بعض أصحابه عن الحوض الذي عرضناه سابقاً وحديث نزو القردة على منبره، وحديث اختلاف الأُمة بعده.

بماذا نفسّر هذه الحقيقة؟

انّه لا يوجد تفسير معقول الاّ انّ التحولّ الذي عاشه أكثر الصحابة، في السلوك، والقيم، والمفاهيم، لمن يكن جذريا، وكان خط التربية الإسلامية ما زال بحاجة إلى مواصلة ومراس ليصفي آخر راسب من رواسب الجاهلية، ويطعن آخر رئة للنفس القبلي الأناني الضيق.

على انّ القضية ليست قضية الصحابة وحدهم، انّ الآلاف ومئات الآلاف التي دخلت الإسلام جديدا وقبيل وفاة الرسول (ص)، والتي دخلت الإسلام بعد وفاة الرسول (ص)، لا تعرف عن الرسالة الجديدة الاّ الشيء القليل القليل، وهي تنتظر من مركز الدولة أن يمدّنها بالمربيّن والرساليين، وهي تنظر إلى جيل الصحابة أنفسهم، وتفهم الرسالة عن طريقهم.

بل انّ الأجيال التي ستعقب هذا الجيل، والتي ستدخل الإسلام بعد سنين، لمن تنظر؟ انهّا لا تفهم الإسلام عن طريق نصوص القرآن بمقدار ما تتأثر عملياً بسلوك جيل الصحابة الذي هو بمثابة التجسيد لمفاهيم الرسالة.

خطورة موقع القيادة:

ومن هنا يكون للقيادة أخطر موقع.

انّها تمسك الخط من رأس، وانها هي المسؤولة عن الاستمرار في عملية التغيير والتصفية، وعن الإسراع في سدّ الأبواب

القضاء عليها تماماً، انّه يجب على القيادة أن تواصل المسير.

وانّه لا يجوز التوقف كما لا يجوز الإنسحاب.

انّ التوقف في عملية التغيير سيتيح الفوصة الكافية لأن تستعيد فلول النفسية الجاهلية قواها، وأن تلتهم وتختون بعض الأنفاس.

كما إنّ الإنسحاب، أو حرف الخط نفسه، يعني بالنتيجة فقدان كل البناء الذي تمّ تعموه لحد الآن، ويعني تقدم الجاهلية على حساب الإسلام.

ومن هنا يجب أن تكون القيادة بمستوى موقعها.

لا توقف،ولا انسحاب،ولا انحراف في خط التربية.

وإذن... يجب أن تكون مستوعبة تماماً لرسالتها، كما يجب أن تكون قد هضمت وجسّدت والتحمت مع رسالتها، من أجل أن تضمن عدم التوقف وعدم الانسحاب وعدم الانحراف.

انّه يختلف كثيراً موقع القيادة عن موقع الوعية.

القيادة مسؤولة عن الخطّ كله، والانحراف فيها يعني انحراف الخط كله، والانزلاق به إلى الهاوية، وتدمير البناء كاملا.

أمّا الوعية فانحراف بعض أفرادها يعني انحراف نفسه، وربما لا يجر إلى آخرين،ولا يحرّف مسيرة التجربة كلهّا. من هنا يكون موقع القيادة خطراً وحساساً أكثر من موقع الوعيّة.

وحينما تكون الرسالة في مرحلة بناء، فان موقع القيادة سيكون أخطر مما لو كانت الرسالة قد استكملت بناءها.

في مرحلة البناء يكون انحراف القيادة تشويهاً للرسالة عملياً ونظرياً، إذ المفروض ان القيادة قد تشبعتَّ بمفاهيم وقيم الرسالة جميعاً وها هي تجسّدها، إذن فأيزلة فيها تعتبر زلةّ في الرسالة نفسها.

والذين يعتنقون الرسالة يفهمونها من سلوك القادة، ويحكمون عليها في ضوء

تصرفات ومواقف القادة.

الآن، وفي القرن الخامس عشر من عمر الإسلام، حينما نريد أن نشرحه للناس فإننا نضطر إلى التذكير بمواقف رجالات الإسلام الأولين، وبالمجتمع الإسلامي الرفيع، ونعرض الإسلام للناس من خلال سلوك ذلك النموذج. أليس صحيحاً؟

* * *

والقيادة يجب أن تكون مستوعبة للرسالة لا فقط من أجل مواصلة المسيرة، بل أيضاً من أجل حلّ المشاكل المستجدّة حلا صحيحاً، وفي صالح الرسالة نفسها.

ورسالة الإسلام بعد رسول الله (ص) كانت تواجه تراكماً في المشاكل، اثقلت ظهر الخلافة الحاكمة.

مشاكل في تنظيم المجتمع، وتنظيم الاقتصاد، وتنظيم الجيش والفتوحات، وما ينبثق عن ذلك من مسائل فقهية لا عهد للمسلمين بها أيام الرسول (ص).

ولا يكفي أن تحلّ هذه المشاكل حلاً سطحياً مؤقتاً، ربما يكون ذلك على حساب الرسالة في القريب أو في البعيد. انه يّجب أن يكون الحلّ جذرياً، ومشتقاً من أصول الرسالة نفسها.

خصوصاً حينما تكون الحلول مطروحة في مرحلة البناء. انّها ستعطي صورة عن واقع الرسالة، وسترسم للناس صفتها، ولا مجال ابداً للاقتناع بأن هذه مجرد وسائل مؤقتة وحلول آنيّة لا غايات ومناهج دائميّة.

* * *

على أن هناك ناحية اخرى تتدخل في تقييمنا لخلافة السقيفة.

وهي الأساس القانوني الذي اعتمدت عليه هذه الخلافة، وبه تذرَّعت للوصول إلى الحكم.

فمن ناحية يجب أن ندرس ما إذا كانت خلافة السقيفة ملتزمة عملياً بهذا الأساس وخاضعة له؟ ومن ناحية أخرى يُدرس ما إذا كان هذا الأساس يتناسب مع المرحلة أم أنّه سابق لأوانه؟

وفي دراستنا هذه لا نريد أن نتعرض لمدى شرعية هذا الأساس، واقرار الشارع له، إنّما ندرس مدى توافق هذا الأساس مع مصلحة الإسلام عموماً.

خلافة السقيفة.. تقييم سريع:

والآن وعلى ضوء مجموع هذه الخصائص والجهات نستطيع أن ندرس خلافة السقيفة ضمن النقطتين التاليتين:

1. درجة استيعاب الرسالة.
2. درجة الاندماج مع الرسالة.

* * *

1. درجة استيعاب الرسالة:

أساساً لا يعيب أحداً من الصحابة أن لا يكون قد استوعب الرسالة كلها، أو أن يكون على حظ قليل من العلم نسبياً. فالرسالة واسعة الأصول والفروع، عويضة عوض المشاكل والمسائل والأحداث كلّها.

وكثير من الصحابة شلغتهم مشاغلهم ديناً ودنياً عن العكوف على ملازمة الرسول (ص) والانقطاع إليه، وقد كان حظهم من العلم مختلفاً قد يزيد وقد ينقص، على قدر حظهم من ملازمة الرسول (ص) وحرصهم على الاستفادة منه.

والخلفاء رجال من هؤلاء الصحابة، لا يأتيهم العلم غيباً، إنّما بمقدار جهدهم في التعلمّ من الرسول (ص)، وانما بمقدار التصاقهم العلمي به.

ونحن هنا لا نتكلّم مع الذين ذهبوا في الخلفاء مذاهب الغلو، ونسوا أن مئات

الأحاديث في مناقبهم وضعت كذباً، من عهد معاوية وما بعده، بغاية تحطيم كيان علي (ع).

إنّ طريقة البحث الموضوعي تفترض علينا محاسبة أية رواية من روايات الفضائل والمناقب من خلال مراجعة رواتها ومقدار وثاقتهم. ومن خلال دراسة مضمونها عقلياً وإسلامياً.

ومن خلال مقارنتها مع مجموع القرائن التاريخية الثابتة.

وإذا التزمنا هذا المنهج فإنّا سنعرف أن أكثر بل المعظم الساحق من روايات مناقب الصحابة عموماً هي من نوعات أقلام الوضاعين أو نسج أيديهم. وتلك نتيجة انتهى إليها المحققون قديماً وحديثاً.

وفي هذا الضوء فإنّه لا مجال للتصديق بأكثر ما ورد في تمجيد خلافة السقيفة.

انظروا ماذا كتب الوضّاعون، فقد حدثوا عن رسول الله (ص) أنهّ قال:

" إنّ الله يتجلّى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ".

" إنّ الله لما اختار الأرواح اختار روح أبي بكر ".

" عرج بي إلى السماء فما مررت بسماء الاّ وجدت فيها مكتوباً: محمد رسول الله أبو بكر الصديق من خلفي ".

"رأيت كأني أعطيت عساً مملوءاً لبنا فشربت منه حتىّ امتلأت، فرأيتها تجري في عروقي بين الجلد واللحم ففضلت منها فضلة فأعطيتها أبابكر، قالوا: يارسول الله هذا علم أعطاكه الله حتّى إذا امتلأت ففضلت فضلة فأعطيتها أبابكر، قال (ص) قد أصبتم ".

ورووا في عمر مثل ذلك، فنسبوا إلى رسول الله (ص) انّه قال:

" لو لم أبعث فيكم لبعث عمر ".

" ما طلعت الشمس على رجل خير من عمر ".

" انّ الشيطان ليفرق منك يا عمر ".

" مكتوب على ساق العرش: لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، محمد رسول الله، ووزراه أبوبكر الصديق وعمر الفاروق ".

وفي عثمان لم يكن الوضع أقل من ذلك، فقد نسبوا إلى رسول الله (ص) انّه قال:

" ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة ".

وحدّثوا عن عائشة انها قالت:

" ما رأيت رسول الله (ص) رافعاً يديه حتّى يبدو ضبعاه الا لّعثمان بن عفان إذا دعا له ".

إلى عشرات من أمثال هذه الموضوعات، التي نحيل القارئ في استيعابها، والتعرف على وجه تفنيدها جميعاً، على كتاب (الغدير) للعلاّمة الأميني. فقد استوفى البحث فيها مفصّلا، وأظهر أن جميع أسانيدها مطعونة، ومرفوضة عند علماء الرجال والحديث من أهل السنة أنفسهم.

على انّ المحققين منهم قد اعلنوا عن هذه الحقيقة.

فالعجلوني في كتابة كشف الخفا ذكر مائة باب ممّا لم يصح فيه حديث، وذكر منها فضائل أبي بكر قائلا:

" فضائل أبي بكر الصديق .رضي الله عنه . أشهر المشهورات من الموضوعات ".

وذكر السيوطي في اللئالي المصنوعة ثلاثين حديثاً من أشهر فضائل أبي بكر " مما اتّخذه المؤلفون في القرون الأخيرة من المتسالم عليه، وأرسلوه إرسال المسلّم، بلا أي سند أو أي مبالات " ثم زيفّها وحكم عليها بالوضع [1].

1- الغدير، ج 7، ص 88.

على أنّه لو كان لأبي بكر واحدة من تلك المناقب لكان ينبغي أن ينتصر بها عمر يوم كان يدعو لأبي بكر، وينتصر لخلافته، بينما لم نجده ذكر الاّ انّه ثاني اثنين إذ همُا في الغار.

والقدماء قالوا في أبي بكر، وعمر، وعثمان شيئاً كثراً، لا شاهد له من التاريخ والحديث.

وكما قال طه حسين:

" فالقدماء قد أكبروا هذين الشيخين الجليلين . أبي بكر وعمر . إكباراً يوشك أن يكون تقديساً لهما، ثم أسلوا أنفسهم على سجيتها في مدحهما والثناء عليهما.

وإذا كان من الحق إنّ النبي (ص) نفسه قد كذب الناس عليه، وكان كثير من هذا الكذب مصدره الإكبار والتقديس، فلا غرابة في أن يكون اكبار صاحبيه العظيمين وتقديسهما مصدراً من مصادر الكذب عليهما ايضاً "[1].

وليس الاكبار وحده هو الذي دعا إلى الوضع والافتراء، إنّما الحروب الطائفية والعصبيات المذهبية، ومصالح الحكم والسياسة، كانت اكثر دعوة إلى الوضع والاصطناع.

لقد قال القدماء:

" إنّ أبابكر من أكابر المجتهدين بل هو أعلم الصحابة على الاطلاق ".

" لم يكن أبوبكر وعمر ولا غيرهما من أكابر الصحابة يخصّان علياً بالسؤال، والمعروف انّ علياً أخذ العلم عن أبي بكر "[2].

1- الشيخان، طه حسين، 706.

2- الغدير: 181، ح 7.

وقالوا:

" لو وضع علم احياء العرب في كفّة ميزان ووضع علم عمر في كفّة ميزان لرجح علم عمر، ولقد كانوا يرون أنهّ ذهب بتسعة أعشار العلم ".

" لو وضع علم عمر في كفّة وعلم أهل الأرض في كفّة لرجح علم عمر "[1] واعتقد انّ كل أحد يعرف مدى المبالغة والاسراف في هذه الأقوال.

فتاريخ الخلفاء يشهد على أنّهم كانوا يقفون في عثرات وعثرات المرات في مسائل فقهية قد تكون بسيطة احياناً، ومذكور حكمها في القرآن احياناً أخرى، كما كانوا يقفون أيضاً في تفسير آيات كثيرة من القرآن الكريم. على أن ما يؤثر عنهم من الرواية قليل جداً، سواء في تفسير آيات القرآن، أو في السنّة.

حتّى انّ الحافظ جلال الدين السيوطي قال:

" الرواية من الثلاثة . في التفسير . نزره جداً...ولا احفظ عن أبي بكر .رضي الله عنه . في التفسير إلاّ آثاراً قليلا جداً تكاد تجاوز العشرة "[2] .

وفي السنّة نجد انّ الإمام أحمد لم يذكر لأبي بكر إلا ثمانين حديثا يزيد المتكرر منها على عشرين. أما ابن كثير فقد أوصلها إلى اثنين وسبعين، وأنهاها السيوطي إلى مئة وأربعة. وهذا هو أقصى ما يسند له من الرواية.

أمّا عمر .رضي الله عنه . فالرواية عنه بنفس النوعة، وقد كان يعترف صريحاً بعدم تضلعه بأحكام الشريعة، حينما كان يقول:

" كل الناس أفقه من عمر ".

1- الغدير: 61، ح 8.

2- الغدير: 107، ح 7.

والحقيقة انّه لا يوجد أي شاهد تاريخي على انّه كان لأبي بكر وعمر . فضلا عن عثمان . ملازمة علمية لرسول الله (ص)، ولا نملك رواية واحدة صحيحة حتّى على مقاييس أهل السنّة أنفسهم في إثبات الترابط العلمي بينهم وبين الرسول (ص). بينما صحّ من طرق أهل السنّة ثبوت ذلك لعلي وسلمان وأبي ذر مثلا. وكما قلت حرفياً: لا يعيب احدا مَن الصحابة أن لا يكون قد استوعب الرسالة كلها، أو أن يكون على حظّ قليل من العلم نسبياً.

فلا ينقص الشيخين (رض) انّهم يجهلون كثيراً من السنّة والقرآن، فربما شغلتهم مشاغلهم عن ذلك. إنما الشيء الذي يلاحظ هو ما إذا كانت هذه الدرجة من الاستيعاب كافية لتسلُّم منصب القيادة أم لا؟

وهنا يعلم كل أحد أن خطورة موقع القيادة في نفسه، وخطورته بلحاظ طبيعة المرحلة التي تمرّ بها الرسالة، تتطلّب أكبر قدر ممكن من احتواء الرسالة وفهمها، وهذا الاقتناع هو الذي دعا كثيراً من أهل السنة إلى القول جدلا بأن أبي بكر كان أعلم الصحابة.

انّ مصير الأمة والرسالة لا يجوز في عرف الرساليين وفي عرف كل الناس أن يربط بقيادة لا تستوعب تفاصيل الرسالة، ولا تحيط بها علماً.

انّ مشاكل كثيرة تنجم عن هذا التصوّر العلمي.

فمن ناحية دعا هذا القصور إلى فتح باب الرأي والاستحسان، الذي إتّسع بالتدريج، فشمل طرح احكام الشريعة وتجاوزها باسم الصالح العام، ثمّ اتسّع ليشمل طرح احكام الشريعة لمجرد الاستذواق والاستحسان.

ودائماً تكون البداية صغيرة، لكنّها تتضخم وتنمو على التدريج وهكذا حدث. فحينما التزمت خلافة السقيفة بفتح باب الرأي، أو الخروج على الشريعة من أجل الصالح العام والاجتهاد في مقابل النص، ربّما لم تكن تدرك ما ستجرّ إليه هذه البداية.

انّ القصور العلمي في خلافة السقيفة جعل الشريعة كلّها في موقع الخطر، خطر التحريف، والتمييع.

انّه منذ الآن أصبح بوسع الخليفة الحاكم أن يقول كلّ شيء، وأن يصنع كل شيء، ولا مجال للاعتراض.

لقد اعفى أبوبكر خالداً من الحدّ حينما قتل مالك بن نويرة، وكان أبوبكر يعلل ذلك قائلا "اجتهد فأخطأ" و " ما كنت لأشُيم سيفاً سلّه الله " أمّا عثمان فقد أسقط الحدود عمنّ يشاء وكيف شاء. اسقط الحدود عن طلقاء بني امية، وآل أبي معيط، وهو في كل ذلك لا يرى انّه قد جاوز فعل أبي بكر.

وجاء عمر فحرم متعة النساء، ومتعة الحج، ومنع عن زيادة المهور، ونسخ سهم المؤلفة قلوبهم وغير ذلك. أمّا عثمان فقد جاوز ذلك كلّه، فاذا هو يصلّي قصوا أو تماما كَيف شاء. واذا هو يتلاعب بأموال المسلمين لا لصالح الإسلام، إنما لصالح العشيرة الأموية، وانّه ليقول بكل جرأة: " إنّما أنت خازن لنا " مخاطبا ًابن مسعود خازن بيت مال المسلمين.

المؤرخون يذكرون انّ الحكم الإسلامي انتقل من الخلافة إلى الملك، بعد ثلاثين عاماً من وفاة الرسول (ص). وهم يقصدون انّ الحاكم أصبح يسوس الناس ويحكمهم لا على أساس من الدين، انمّا حسب مصالحه الشخصية.

لكنهم لا يسألون أنفسهم عن سبب هذا الانتقال السريع، فكأنهم يرونه حتماً من الحتم وقواً من القدر.

أمّا الحقيقة فهي انّ خلافة السقيفة هي التي مهدت .ربمّا لا عن قصد . لذلك كل تمهيد.

فحكم معاوية لم يكن الاّ تسلسلا طبيعياً لحكم عثمان، ومعاوية لم يحدث شيئاً جديدا مّن حيث الأساس لم يكن قد أحدثه عثمان، إنما الفارق في الدرجة لا أكثر.

وإذا انتقلنا إلى عثمان فإنّا نسمعه يقول:

" ما خالفت أبابكر وعمر ".

* * *

ورغم انّ خلافة السقيفة كان تستمع لآراء الصحابة، وتتراجع عن مواقفها في كثير من الأحيان، الاّ ان ذلك لا يعني أبدا أنهاّ كانت متقيدة وملتزمة بالتصويت على رأيها دوماً، وأخذ مواقفة جميع الصحابة.

في كثير من الأحيان كانت تستقل برأيها، وتقطع به من دون مشورة.

فحينما حرَّم عمر متعة النساء ومتعة الحج، ومنع الزيادة في المهور، ونسخ سهم المؤلفة قلوبهم، لم يكن قد استشار أحداً.

ومن الخطأ أن نتصوّر انّ الاعتراض على الخليفة كان أمرا ًميسورا، وًتتوفر دواعيه لدى كل أو كثير من الصحابة.

قليلون هم الذين يملكون الجرأة في الاعتراض، ويدركون حقيقة ما يجرّ إليه هذا التحريف مهما بدأ بسيطاً.

ومن الخطأ أن نتصوّر انّ الخليفة كان سمح الصدر دوما ًبسماع الاعتراض عليه ورد حّكمه.

اخرج مسلم في صحيحه بأربعة طرق عن عبد الرحمن بن أزي:

" انّ رجلا أتى عمر فقال: انّي أجنبت فلم أجد ماء؟

فقال عمر: لا تُصلِّ.

فقال عمار: أمّا تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا واقف في سريّة فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصُل،ِّ وأما أنا فتمعكت في التراب وصلَّيت، فقال النبي (ص): انمّا كان يكفيك أن تضرب بيدك الأرض ثم تنفخ ثم تمسح بهما وجهك وكفيّك فقال عمر: اتّق الله يا عمار.

قال: إن شئت لم أُحدِّث به؟

قال عمر: كلاّ والله ولكن نوليّك من ذلك ما توليّت "[1].

* * *

1- الغدير: 83، 6.

على ان كل ما حدث لا يعوب لنا عن المسار الحقيقي الذي كانت ستجري عليه خلافة السقيفة لولا وجوه الطليعة الشيعية، ولو لا وجود النَفَس الحي في الأمة.

فحين كانت خلافة السقيفة تشكو القصور العلمي، وتمارس بالتبع نتائج ذاك القصور، كانت الطليعة الشيعية تمثِّل دور الرقيب الرسالي، كانت تصحح، وتوجّه وتعترض، وتملأ الثغرات العلمية باستمرار.

كان هناك علي، وعمار، وسلمان، وأبو ذر، وابن عباس، والمقداد، يراقبون ما يجري حولهم عن كثب، ويترصد. كانوا يرشدون وينصحون، واحياناً يقفون وجهاً لوجه، ممثلين التحدّي الرسالي.

وكان غيرهم أيضاً يشاركونهم في هذا الصنيع.

ومع كل ذلك، لم تسلم خلافة السقيفة من الأخطاء، والزلاّت، وبدايات الانحدار.

إذن أي مدىً كانت ستبلغ لو ألغينا من الحساب وجود الصوت المعارض؟!

وعلى أيّ فالنتيجة التي نخرج بها انّ القابليات العلمية لخلافة السقيفة لم تكن بمستوى حاجة المنصب، وحاجة المرحلة.

2 . درجة الإندماج مع الرسالة:

إذا كان شرطاً ضرورياً في القائد الإحاطة العلمية بالرسالة فإنّه ليس أقل من ذلك ضرورة إنصهاره بتلك الرسالة، وبناء كل

أهدافه، وطموحاته، وعواطفه، وخُلقُه، على النحو المنسجم مع محتوى الرسالة وأهدافها، وانهّ بمقدار التفاعل والالتحام مع الرسالة تكون اللياقة لمنصب القيادة أكبر، واعتقد اننّا في غير حاجة لتوضيح هذه الحقيقة الواضحة.

وحينما تكون الرسالة في مرحلة بناء، والأمّة بانتظار المربّي تكون ضرورة تجسيد القائد للرسالة عمليا أكبر وأحكم، فمن خلال هذا التجسيد يستطيع أن ينجح في عملية التربية، وإكمال البناء الرسالي.

وعلى العكس تماماً حينما يبتعد القائد عن واقع الرسالة سلوكياً، فليس فقط يشجع الناس على الانحراف، انمّا يعطيهم مفهوماً محرّفاً عن الرسالة.

وانّ مما يدعو للعجب والدهشة انّ الرسول الأكرم (ص) استطاع خلال أعوام قليلة مكتظة بالأحداث، مملوءة بالمشاكل، أن يخلق جيلا أبدى من الإخلاص والتفاعل والتفاني لرسالته مدىً عظيماً، خلدّه لهم تاريخ الرسالات.

وانّ أحداً لا يشكّ ان الذين عشقوا رسول الله (ص) وأخلصوا له، كانوا على درجة من النبل، والجدية، والوفاء للرسالة ندرَ ان تكون لغيرهم، بل لم تكن أبداً لجيل بعد جيلهم.

وحينما نتحدّث عن الخلفاء الثلاثة بالذات، فإنمّا نتحدث عن رجال من كبار الصحابة.

غير انّ القدماء جاوزوا في الصحابة عموماً واقعهم، وكاد أن ينسبوا لهم العصمة، أو قد ينسبوها لهم بالفعل.

وإذا كان هناك ما دعاهم إلى هذا السرف المتعمد الواضح فإنّه لا يوجد اليوم ما يدعونا إلى مثله، وانّ نظرة الإعجاب والتكريم لصحابة النبي (ص) لا تغيّب عنا الحقيقة.

لقد هذّبهم الإسلام أحسن تهذيب، وعُني رسول الله (ص) بتربيتهم أية عناية، ولكن ذلك لا يعني العصمة، كما انّ نصيبهم من التربية والتهذيب مختلف، فهناك من أسلم قبل الفتح ومن أسلم بعده، وهناك من أخلص للإسلام حقّ الإخلاص، ومن ليس بذاك، وهناك من جرت قيم الإسلام في عروقه، ومن لم يهضم تلك القيم. حسب تفاوتهم في النفسية، والتاريخ، والمصلحة، ومجالات الترقي الروحي.

فليس صحيحاً وضعهم في صفّ واحد، والحكم عليهم بكلمة واحدة.

بهذه الروح يجب أن ندخل للكلام عن الخلفاء الثلاثة.

ما هو مستوى تأثّرهم بقيم الرسالة، وتمثلهم لها؟ وإلى أي مدى اكتسحت مفاهيم واخلاق الرسالة رواسب الجاهلية القديمة من نفوسهم؟ وهنا يمكن القول:

انّ قواً ولو قليلا من تلك الرواسب ظلّ فيهم حياً، وأنهم مهما ارتفعوا في معانيهم فإن تاريخهم لم يخل من سقطات هنا وهناك بتباعد أو تقارب. حينما دخلوا الإسلام دخلوه وهم يحملون ركاماً من الأخطاء، شأنهم شأن كل الذين عاشوا عصور ما قبل الإسلام، والشيء الذي يدعو للاعتزاز والفخر والإعجاب ان ذاك الركام بدأ سريعاً بالتلاشي والذوبان وبنيت مكانه أخلاقية تربية رسالية.

لكن إلى أي حدّ وصلت عملية التغيير فيهم؟

من المبالغة القول بأنه تمّ تصفية كل الانطباعات والتطبعات السلبيّة ذات المسحة العتيقة الضيقة.

هناك شواهد كثيرة تقنعنا جداً بأن أصول التفكير والخلق غير المتأثر بقيم الإسلام كانت تتحرك، وتدفع، وتشارك في التوجيه.

الفرار من الحرب، والتخلف عن جيش أُسامة، واحراق الفجاءة السلمي بالنار، والشفاعة للمشركين عند رسول الله (ص)، والامتناع عن قتل المارق الذي أمر رسول الله بقتله، هذه كلّها من أفعال أبي بكر (رض) لم تكن بدوافع رسالية واعية بالطبع، وهذه كلّها شواهد عدم الانصهار الرسالي.

(1)

عصر الأئمة (عليهم السلام)

مهمّات الدور الأول

حينما نكون بصدد دراسة المهمات التي عمل الخط الشيعي على تحقيقها في هذه المرحلة، ونريد تقييم معطيات العمل من وجهة نظر نقدية، لابدّ أن ندرس أولا ما هي امكانيات العمل؟ وقابليات الخط على التحرك؟ وفي ضوء ذلك يمكن الحكم على النشاط في هذه المرحلة سلباً أو ايجاباً.

وهنا نلاحظ ما يلي:

أولا: لقد اقصي علي عن الحكم، واقصي الخط الشيعي كلّه. ومعنى ذلك انّ علياً سوف لا يستطيع أن يمارس نشاطات القائد والموجّه، وكما كان مرسوماً من قبل الرسول (ص)، وان كل ما يستطيع أن يمارسه من نشاط فإنما هو في حدود دائرة القاعدة الشيعيّة لا القاعدة الواعي.

ثانياً: حتّى في دائرة نشاطات القاعدة الشيعيّة لم يكن علياً مطلق العنان، ولا كان أصحابه كذلك. فموقف الخلافة من علي كان موقفاً متحفزاً لأن علياً هو الذي يزعم المعارضة من ناحية، وهو إن تراجع عملياً عن المطالبة بالحكم فإنه لم يتراجع في قرارة نفسه، ولا رضي بخلافة السقيفة ولأن علياً من ناحية ثانية يختلف مع

الخلافة الحاكمة في كثير من المنعطفات فله فهمه الخاص للشريعة، ولأسلوب الحكم، ولصلاحيّات الحاكم، مما لا يتفق مع تصوّرات الخلافة الحاكمة.

ولأنّ علياً من ناحية ثالثة له سابقة في الدين، وقرباً من رسول الله (ص)، ومجداً رسالياً متفرداً، مما أعطاه في نظر الناس كلّهم موضع الصدارة في الأمة، حتّى كان المهاجرون والأنصار لا يشكون في أنه الرجل الثاني بعد الرسول (ص).

كلّ هذه الأمور جعلت الخلافة تتحفظ منه وتحذر.

فهي لا تنسى ماضيه معها، وانّه لم يبايعها الاّ مرغماً.

وهي لا تنسى موقعه عند الناس، وما يخلق لها ذلك من المشاكل.

وهي تعرف جيداً انّ علياً غير متفق معها في كثير من المواقف، ومن التصورات.

وانّها لتحسب لكل ذلك حساباً.

وعموماً كانت الخلافة الحاكمة تحذر كل منافس، وتحتاط لأدنى توقعات المنافسة، ومن السذاجة بل من العناد أن ننفي عن الخلافة الحاكمة هذه الخاصيّة، وانها لطبيعية في كلّ حكومة تريد لنفسها الثبات والإستمرار.

وانّا سنعود لهذا البحث في تحليل الموقف السياسي إن شاء الله.

أمّا الآن فنختصر القول في تحفظها من علي، ورصدها لنشاطه.

مما يلاحظ في هذا المجال انّ علياً لم يبتعد عن الحكم فقط، وانما أبعدُ عن المشاركة عموما فيً النشاط السياسي والعسكري، وتلك ظاهرة ألفتت نظر الباحثين.

واستمرّت هذه الظاهرة في كلّ العهود الثلاثة عهد أبي بكر وعمر وعثمان.

والمعروف انّ أبابكر ألغى سهم ذوي القربى، كما أخذ فدكاً من الزهراء، وانّ لهذين العملين مدلولا سياسيا واضحا.

وحتّى في المجال العلمي كان للخلافة الحاكمة موقفاً من علي.

فالثابت انّ علياً حين جمع القرآن، رفضته الخلافة الحاكمة وقد كانت أحوج ما تكون إليه، ثمّ لجأت إلى غير علي أن يتصدّى لجمع القرآن. لماذا؟

لأن أية خطوة يتقدم بها علي تكون على حساب شخصية الخليفة، وفي غير صالحه، ومن هنا رفض جمع علي للقرآن. ولم يُشرك في عملية الجمع التي تصدّت لها الخلافة مؤخراً بينما مقام علي من القرآن معلوم.

وعلى العموم لم يكن علياً في عهد الخلفاء الثلاثة قادراً على التحرك الحرّ المطلق، ولا أصحاب علي كان لهم ذلك.

المعروف انّ أبابكر حين أراد تولية خالد بن سعيد اعترض عليه عمر، وذكّره بموقف خالد من الحكم القائم، واتجاهه العلوي. وأخيراً ترك أبوبكر عن رأيه فعزل خالداً، وولى مكانه معاوية ابن أبي سفيان.

لقد كان عمّار وكان سلمان والياً لعمر بن الخطاب في مصر وفي المدائن، وكان هؤلاء من أصحاب علي، لكن عمر عزلهم بعد حين، لوشاية بلغته فيهما، ولك أن تسأل عن مضمون هذه الوشاية، ومن القادم بها من مصر ومن المدائن إلى عمر.

والتاريخ لم يكشف لنا النقاب عن مضمون تلك الوشاية، لكن من يعرف عماراً وسلمان في التزامهما الحرفي بالدين، وفي

اتجاههما العلوي، يعرف حقيقة تلك الوشاية.

من المطمئن به انها ليست وشاية في سرقة أو غصب أو اكتناز الأموال أو الاستهتار بحقّ الناس، فعمار وسلمان أبعد ما يكونوا عن ذلك، ولو كانت وشاية بذلك لكن عمر يؤدبهما علناً أمام الناس.

إنما كانت وشاية في النشاط لصالح علي، ومن هنا لم يعلن عنها، ولم يؤاخذ بها، واكتفى الخليفة بعزلهما.

المقصود الآن الفات النظر إلى الرقابة التي كانت تحيط برجال علي.

وحين قال الزبير: " لو مات عمر لبايعت علياً ".

فوراً نقلت هذه الكلمة إلى الخليفة، وانتهى إليه خبرها!!

وفي عهد عمر نفسه هناك قضيةرغم بساطتها فهي ذات دلالة كبيرة.

في رواية انّ الحسين قدم على عمر وهو على المنبر فقال له:

" انزل عن منبر أبي ".

وفوراً سأله الخليفة بذكاء: " من بعثك؟ ".

لقد أراد الخليفة بهذا السؤال أن يعرف ما وراء هذا التصرّف الغريب من الولد الصغير، وما إذا كان علياً هو الذي أرسله أو لا؟

ولقد بدأ عمر بهذا السؤال وهو غير شاك في انّ أحداً أرسل الحسين، أو أنهّ أراد أن يحتال على الحسين في أخذ الحقيقة منه.

أمّا في عهد عثمان فنحن في غير حاجة إلى اطالة الحديث في الضغوط التي كان يواجهها الخط الشيعي، ومحاولات حجزه عن التحرك مطلقاً.

ثالثاً: وحين صار الحكم إلى علي بعد عثمان كانت المعارك والفتن تفقده كل فرص النشاط الرسالي، وتستقطب كل طاقاته وجهوده، وهو مع هذه الحاجة صنع شيئاً كثيراً في سبيل الرسالة، كما سنقرأ إن شاء الله.

وقل نفس الشيء في الحسن والحسين (ع).

فماذا يستطيع الحسن أن يفعل ومعاوية يخيف كل صوت معارض، وانّه ليتتبَّع الشيعة واحداً واحداً.

وفي ظل هذه الضغوط كيف نتوقّع من الخط الشيعي أن يفتح للإسلام كل فتح وهو مخنوق، مطارد، مراقب؟

إذن يجب أن نأخذ في الحساب طبيعة ظروف المرحلة، وفي ضوءها

نستطيع تقييم نشاط الخطّ الشيعي والمهمات التي توفرّ لإنجازها.

والآن يمكن حصر تلك المهمات فيما يلي:

المهمة الأولى: بناء القاعدة الشيعية:

رغم انّ الضرورة السياسية كانت تفرض على الطليعة الشيعية مصافحة الخلافة الحاكمة وتجنب مناهضتها كما ستعرف.

ورغم انّ الشيعة ومعهم علي قد بايعوا أخواً وكسروا الجدار النفسي الذي حدث باقصائهم عن الحكم، والخروج على حقهم.

رغم كل ذلك فإن الاعلان عن عدم شرعية هذه الخلافة، ورفض اعتبارها القيّم على الإسلام والمسلمين، بات من مهمّات المرحلة التي سعى الشيعة إلى تحقيقها.

كان من الضروري جداً التأكيد أمام الرأي العام الإسلامي على هذه الحقيقة.

حقيقة انّ التجربة الإسلامية لم تصبح بيد قيادتها الشرعية، وان الخلافة الحاكمة بديلا غير كفوء، ولا يمكن اعتباره الأمين على هذه التجربة والوجه الحقيقي لها.

كان ضرورياً الاعلان عن انّ الزعامة الحقيقية لعلي، وهو وحده الذي يعبرّ بأمانة وباستيعاب، ويجسدّ بصدق وشمول كل أهداف، ومفاهيم، وأبعاد الرسالة.

كان ذلك ضرورياً، لأجل أن تبقى الرسالة نقية في فهم الناس، ولأجل أن لا تحُمل على الرسالة المواقف الخاطئة، والمنخفضة التي قد تتورط فيها الخلافة الحاكمة.

نحن قلنا انّ الرسالة ما زال في مرحلة البناء، والأمة بعد غير مشبعّة روحياً

ونظرياً ولا بلغت في فهمها العمق النهائي لرسالتها.

المفاهيم التي جسّدها رسول الله (ص) بحاجة إلى تركيز، وتأطير، لتصبح صيغاً رسالية ثابتة في رسالة الإسلام.

وهناك حاجة إلى تأكيد انّ القيم التي جسدّها رسول الله (ص) لم تكن له وحده، وانمّا كانت لكل الناس، ومحمد (ص) هو النموذج للرجل المؤمن الرسالي.

وهناك حاجة إلى إشعار الناس بأن الرسالة ليست فوق مستوى البشر، ولا تجسيدها حرفياً أمر خارج عن المقدور، فالإنحراف ليس ضرورة، ومحمد (ص) لم يكن بدعاً من الناس، إنمّا كان بشراً، والرسالة هي التي صقلته، وهي قادرة على أن تصقل كلّ الناس.

والخلافة الحاكمة لم تكن عند مستوى هذه الضرورات الإساسية.

الخلافة الحاكمة هي شخصياً عاشت الإنحراف، واعترفت به.

وهي شخصياً لم تكن تهضم كلّ مفاهيم الرسالة.

وهي شخصياً شاركت في خلق هذا المفهوم، مفهوم أنّ الالتحام التام مع الرسالة أمر غير مقدور، ولا مطلوب، انمّا محمد (ص) وحده كان مسؤولا وقادراً على ذلك.

الخليفة الأول ركّز هذا المفهوم وساعد عليه من حيث لا يدري حينما قال: " لا تؤاخذوني فلست بنبيكّم ".

من هنا كانت الحاجة إلى اعلان عدم قيمومة الخلافة الحاكمة على الرسالة، ورفض اعتبارها النموذج الأمثل للانسان الرسالي.

لأجل أن لا تزول ثقة الناس بالرسالة، ولأجل أن لا تحرّف من نظر الناس، ولأجل أن لا يشك الناس في قدرة رسالتهم على بناء الشخصية النموذجية، وتكوين المجتمع الملتزم بكل مفاهيمها.

هذا نظرياً...

وعملياً كان لابدّ من خلق فئة واعية نموذجية، تجسدّ مفاهيم الرسالة، وتشرحها للناس من خلال هذا التجسيد.

كان لابدّ من بناء قاعدة حصينة، وراسخة، تؤكد في الناس قيم الرسالة وتصوّراتها، وتحافظ على أمل الأمة برسالتها وبقادتها الحقيقيين، وحتّى لا تصاب بالإنهيار النفسي، واليأس من بلوغ الأهداف والأبعاد القصوى للرسالة.

هذه الفئة بنفس وجودها، تقنع الأمة بأن رسالتها حيّة، وسوف تبقى حيّة، وانّ رسالتها رسالة واقعيةّ، وجديرة بالنجاح في تربية الإنسان، وخلق المجتمع الملتزم، وليست رسالة متنكرة لدوافع الإنسان، وحاجاته، وغرائزه. وانّ رسول الله (ص) لم يكن رسولا لأنه يتزل عليه الوحي، وإنّما لأنّه اندمج مع الرسالة، فهو قدوة لكل ّالناس، وهو مثلٌ َينبغي أن يسار باتجاهه.

وسوف تشترك هذه الفئة في مهمّة الرقابة الرسالية على الخلافة الحاكمة، تصحح، وتوجّه، وتنصح، وتردع، وتكشف للناس الأخطاء إذا تعذر عليها أن تصحح تلك الأخطاء.

وكان علي (ع) هو محور النشاط في هذه المهمّة، والعَصَبَ الرئيسي له.

كان هو القادر على انتزاع صفة الشرعية من الخلافة الحاكمة.

وكان هو القادر على تعزيز وتحصين الفئة النموذجية الواعية.

وكان هو القادر على أن يعرض نفسه للناس بوصفه القيادة الشرعية، والقيّم الحقيقي على الرسالة، والتعبير الصادق عن مفاهيمها وتصوراتها.

وكانت الطليعة تلتفّ حول علي، تحصّن نفسها به، وتشترك معه بالتالي في مجموع المهمات.

وسنرى الآن مقدار الجهد الذي بذله الإمام علي، وبذلته الكتلة الشيعية في هذا السبيل.

كان أوّل اعلان عن عدم شرعية خلافة السقيفة يوم رفض علي (ع) والملتفّون حوله البيعة، وأصروّا على هذا الرفض.

فالمؤرّخون يحدثّون انهّ امتنع عن البيعة علي،ّ ومعه جماعة من المهاجرين وجماعة من الأنصار وتحصنوا في داره ومع بعضهم سلاح.

انظروا..رغم انّ علياً لم ينهض بأصحابه لضرب الحكم القائم، حسب ما اقتضاه الوضع السياسي، الا انّه لم يكن مستعداً للإقرار لهذا الحكم، دون أن يسجل للناس ولتاريخ الرسالة الطويل موقفه السلبي تجاهه.

وقد تعمّد أن يبقى على هذا الرفض، هو والهاشميون ومن كان معه من غيرهم، ويعرّف الناس بحقيقة موقفة، حتىّ تضطره الخلافة الحاكمة إلى البيعة، فيعرف الرأي العام أنّه كان مقهوراً لا مختاراً.

هذا ما حدث..

فبمشهد من عموم المسلمين جاءت رُسُل الخلافة الحاكمة تهددّ علياً وّالمتحصنون معه باحراق الدار عليهم، حتى أثار ذلك مشاعر الناس، فقيل لعمر: وهو برأس ذلك الجمع إن فيها فاطمة؟ قال: وإن.

وأُخرج علي مقاداً، مكتوفاً، وانهّ ليستطيع أن يفعل الشيء الكثير، لكنه لم يفعل، لأنه يّريد أن يعرف الرأي العام واقع الحال.

وفي الجامع المزدحم بالناس، الذين شرأبت اعناقهم لمعرفة ما يحدث، وكيف يصنع علي، وكيف تتعامل معه الخلافة.

في مشهد من هؤلاء الناس، وعلي مكبّل يسأل:

فإن لم أبايع؟

يقال له: إذن تقتل؟!

فيقول: أتقتلون عبداً لله وأخاً لرسوله؟!

ويقول:

" يا معشر المهاجرين: الله الله لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحقّ بهذا الأمر منكم ما كان منا القارئ لكتاب الله، الفقيه لدين الله، العالم بالسنّة، المضطلع بأمر الرعية، والله انهّ لفينا فلا تتبعّوا الهوى فتزدادوا من الحق بّعدا ".

ولمدة ستة أشهر ظلّ (ع) ممتنعاً، ووجوه الناس نحوه مصوبّة، أليس يكفي ذلك في تعريف الناس برأيه.

تقول الرواية: " حتّى إذا ماتت فاطمة انصرفت وجوه الناس عنه " فبايع بعد ذلك، وفي رواية أنه بايع بعد ستة أشهر.

لماذا يفعل ذلك علي؟ وهو يعلم علم اليقين انّ ناصره قليل وخاذله كثير، ولا أمل في استرجاع حقّه.

وهل كان علي سيبقى رافضاً، معتزلا، بعيداً عن الناس، ما بقيت خلافة السقيفة في الحكم..؟

جزماً لم يكن علي يرتكب ذلك، انّه ليس من صالح الرسالة، ولا الأمةّ.

انّما كان يريد أن يسجل الرفض، لأجل التسجيل فقط، ولأجل تعريف الناس بلغة رافض، رافض.

وجاءت الزهراء (ع)، وجاء شيعة علي (ع)، ينسفون علانية وفي الجامع النبوي وبمسمع من الناس ومشهد كل اساس شرعي لهذه الخلافة.

جاءت الزهراء تطالب بالميراث وتطالب بفدك، لكنّها لم يكن من قصدها ذلك بمقدار ما كانت تقصد إلى شيء آخر.

تقصد إلى تحطيم مزاعم الخلافة حين أقصت علياً عن الحكم، ووضعت نفسها، فاذا هي تبتعد عن الميراث، وتبتعد عن فدك، وتقول للناس:

" أيّها الناس اعلموا:

انّي فاطمة، وأبي محمد (ص)، أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطا، ولا أفعل ما أفعل شططا، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم. وأخا ابن عمي دون رجالكم.. ".

ثم بعد أن تعرّفهم مقامهم من الرسالة، انهم حملة دين الله ووحيه، وأمناء الله على أنفسهم، وبلغاؤه إلى الأمم، وبعد أن تعرّفهم مقامها من الرسول، تتوجّه إلى قضية الخلافة، وتتهمهم بالنكوص والخذلان والانحراف قائلة:

" قد لسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لمّا يغبر، ابتدارا زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا وإنّ جهنمّ لمحيطة بالكافرين.

فهيهات منكم، وكيف بكم، وانّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، وقد خلّفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدَلا... ".

ليست الزهراء بصدد فدك. لا نخلات ولا نخيلات، هل تستنهض الأنصار، وتحدث أكبر شقاق، لأجل فدك؟

ماذا كانت تعني حين خاطبت الأنصار:

".. وأنتم ذو العدد والعدّة، والأداة والقوّة، وعندكم السلاح والجنةّ، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت.... فأنّى صرتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الاعلان؟ وأشركتم بعد الإيمان؟ بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم.. ".

وما فدك؟! حتّى تثور لها الزهراء (ع) هذه الثورة، فتجردهم من الإيمان،

وتتهمهم بالإشراك، ونكث العهد، والاسرار بعد الاعلان؟ وتذكرهم بأنهم الخونة التي اختارت لنصرة أهل البيت.

ومرّة أخرى أسمعتهم مقالها، وعرّفتهم رأيها، يوم اجتمعت بنسائهم قائلة:

"ويحهم انّى زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوّة ومهبط الروح الأمين، الطبين بأمور الدنيا والدين. تقصد علياً.

ألا ذلك هو الخسران المبين..!

وما الذي نقموا من أبي الحسن؟!

نقموا والله منه نكير سيفه، وشدّة وطأته، ونكال وقعته، وتنمرّه في ذات الله، وتالله لو تكافأوا على زمام نبذه إليه رسول الله (ص) لاعتقله وسار بهم سواً سجحاً، لا يكلم خشاشه، ولا يتتعتع راكبه، ولأوردهم منهلا رويا فضفاضا.. ".

حتّى تقول:

"وان تعجب فقد أعجبك الحادث، إلى أي لجأ التجؤا؟ وبأي عروة تمسكوا، لبئس المولى ولبس العشير، وبئس للظالمين بدلا.

استبدلوا والله الذنابا بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون انهم يحسنون صنعاً، ألا انهّم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.

ويحهم! أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتبعّ أمنّ لا يهدي الا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون؟ ".

الرواء صريحة هنا كل الصراحة، ما الذي نقموا من أبي الحسن؟

أفمن يهدي إلى الحق أحقّ أن يتبع أمّن لا يهدي الا أن يهدى؟

وَلِمَ أبعَدوه عن زمام نبذه إليه رسول الله (ص)؟

فهي إن بدأت بحقها في فدك، جاوزته سريعاً إلى حقّ علي في الإمامة.

وهي إن بدأت بحقّ علي انتهت بحقّ علي أيضاً.

وكان ذلك اعلاناً بعد إعلان، وبياناً بعد بيان.

وهي إذ تموت توصي أن تدفن ليلا، ولا يشهد جنازتها أحد من هؤلاء الذين

ظلموها!

وهي قبل أن تموت تعلن غضبها وسخطها على أبي بكر وعمر أمام الناس مرّة، واليهما مرّة اخرى حين جاءاها معتذرين فما عذرتهما.

أمّا شيعة علي فقد كان لهم نصيب في هذا الإعلان، وقد نقل المؤرخون احتجاجاً لاثني عشر رجلا من أصحاب علي (ع) صرحوا به أمام الملأ العام في مسجد النبي (ص)[1].

ونرجع إلى علي مرّة أخرى.

فهو لم يقنع برفض البيعة.

ولم يقنع أن كشف للناس رأيه في هذه الخلافة.

إنّما ظلّ يصطحب الزهراء (ع)، يطوف بها ليلا على بيوت الأنصار، ولمدة أربعين يوما على ما تتفق عليه المصادر التاريخية.

وهو في هذا الطواف يشرح للأنصار واقع المنحى الذي اتجهت إليه التجربة الإسلامية حين أخذ الزمام من قيادتها الحقيقية، والزهراء معه تشرح لهم أبعاد ما يؤول إليه هذا الواقع.

* * *

وباستمرار كان علي (ع) وكان الخط الشيعي كلا يعمل إلى ترسيخ هذا المفهوم عن خلافة السقيفة، واعتبار الوضع وضعاً استثنائياً، وفي حالة غير طبيعية.

كان ينبه الأمة على أنها لا تعيش التجربة الإسلامية الحقيقية، وكما أرادها رسول الله (ص) وأرادها الإسلام، وبالتالي يجب أن لا يفهم الإسلام من هذه المداخل غير الطبيعية.

1- انظر هذه الاحتجاجات في (المراجعات) للعلامة شرف الدين.

حينما عرض عليه عبد الرحمن بن عوف أن يبايعه على العمل بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الشيخين، إمتنع، وقال: على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي.

أي موقف أغرب من هذا الموقف، وأوضح منه دلالة في نفس الوقت.

كان علي في هذه اللحظة بالذات قادراً على أن يربح الحكم، لكن ذلك يكلفه الاعتراف بالشرعية لخلافة السقيفة، وهو لا يريد ذلك، فرفض رفضاً وهو يعلم انّ القيادة ستبتعد مرّة ثالثة، وهو يعلم ان القيادة ستصير إلى عثمان، لكنه كيفما كان لا يرى من صالح الرسالة أن يقبل البيعة وفيها الاعتراف بقيموميّة الشيخين على الرسالة.

وبهذا كان واضحاً لدى الرأي العام انّ عليا غير منسحب عن رأيه في خلافة السقيفة، وهو ما زال يرى نفسه صاحب الحق الشرعي، رغم أنه عملياً قد بايع هذه الخلافة.

الخليفة الثاني (رض) كان يعرف هذه القضية جيداً. وكان يودُّ من أعماقه لو انّ عليا يتنازل له حقيقة وينسى الماضي.

كان يقول لابن عباس:

" حدّثني في صاحبكم هل بقي في نفسه من هذا الأمر شيء؟ ".

ولقد بلغ هذا الوضوح في موقف علي إلى درجة قيل فيه:

" إنّ ابن أبي طالب مازال يطلب الملك ".

وحين دراستنا للموقف السياسي سنقرأ إن شاء الله نشاط الشيعة في الدعوة لعلي، وذاك يعني بطبيعة الحال التأكيد للرأي العام أنّ علياً هو صاحب الحق الشرعي، وان التجربة بمعزل عن قيادته تعيش وضعا غير طبيعي.

* * *

وحين صارت الخلافة لعلي لم ينس ضرورة التأكيد على هذه الحقيقة ذلك انّ المسألة لم تكن مسألة خلافة وحكم، وإنّما أصبحت مسألة خطوط للتعبير عن الإسلام.

فخلافة السقيفة لم تحكم فقط وإنما رسمت للرسالة خطاً معيناً في المفاهيم، والأهداف، وطريقة فهم الشريعة عموما، بينما علي (ع) لا يؤمن بذاك الخط ويرفضه، ونحن سنرى إن شاء الله ان حكم الشيخين أصبح فيما بعد هو المستقى الذي اخذت عنه المدرسة السنيّة مجموع تصوراتها عن الرسالة.

إذن فعلي حين جاء إلى الحكم وبمقدار ما كان يسعى عملياً وممارسة مسح الأخطاء والتحريفات المتقدّمة سعى نظريا لتأكيد وجهة نظره في خلافة السقيفة. فأعلن صريحاً أنها خروج عن الخط الطبيعي الذي وضع للتجربة الإسلامية.

ولعل خطبة الشقشقيّة كانت من أوضح وآكد تصريحاته في هذا السبيل.

" أما والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة وانّه ليعلم انّ محلي منها محل القطب من الرحا، ينحدر عين السيل، ولا يرقى إلي الطير، فسلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتئي بين ان أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتّى يلقى ربّه... ".

ويستمر في عرض أصدق صورة عن خلافة السقيفة، حتّى ليوضح للناس انّه فكرّ في مناهضتها ومقارعتها السيف.

وحين استشهد الإمام علي (ع) جاء الحسن (ع) ليؤكد للناس ان الفشل السياسي الذي أصيب به الخط لا ينزع من قيمة الخط نفسه، ولا يقتضيه للانسحاب ونقض تصوّراته وقناعاته.

كان علي هو الذي أوصى للحسن (ع) واستخلفه، أشياقاً معرأيه في الحكم، يوم قال:

" لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم ما كان منّا القارئ لكتاب الله... ".

وجرياً مع الأطروحة التي أعطاها الرسول (ص)، وأرادها الوحي، في وضع قيادة التجربة الإسلامية بيد أهل البيت (ع).

وحينما جاء الإمام الحسن (ع) واضطرته الظروف السياسية . كما سنشرح . لأن يصالح معاوية صالح معاوية، لكن دون أن

يعطيه أي قدر من الشرعية، وأي اعتراف بالقانونيّة.

صالحه على أن لا يدعوه بأمرة المؤمنين، وأمام الناس جميعاً قرئ كتاب الصلح، وكشف النقاب عن محتواه.

فقد جرّده إذن .ولو نظرياً. من إمرة المؤمنين، ومن الزعامة.

وحينما إشترط في الصلح أن تكون الخلافة له بعد معاوية، ثم لأخيه الحسين إن لم يكن هو في الوجود، كان ذلك كافياً لترسيخ المضمون الفكري للخط، وتحديده وتعميقه للناس رغم كل الحواجز والضغوط السياسية. إذن فالحسن الآن هو الخليفة الحقيقي، والزعيم الشرعي، ومن بعده الحسين، وليس لمعاوية شيء في ذلك سوى انّه غاصب، وغاصب فقط. كان المطلوب والمقصود في هذه المرحلة جرّ الرأي الإسلامي نحو الإعتراف بزعامة أهل البيت، واعتبارهم الممثل والزعيم والموجّه الحقيقي.

وكانت كلّ الخطوات مرسومة وموضوعة من أجل هذه الغاية، من علي وعمار وسلمان وأبي ذر، وإلى الحسن وأصحاب الحسن، ثم إلى الحسين (ع).

علي (ع) حين كان يدعو لنفسه، ويرشح نفسه، كان لا ينسى التأكيد على المحتوى الحقيقي للفكرة، فهو لا يرشح نفسه لأنّه علي، وانّما لأنّه واحد من أهل البيت الذي أعطيت لهم القيادة بوصفهم:

" القارئ لكتاب الله، الفقيه لدين الله، العالم بالسنّة... ".

بهذا الإتّجاه استخلف الحسن.

وبهذا الإتّجاه رفض الحسن أن يعترف لمعاوية .رغم انّه مضطر لمصالحته .

بأمرة المؤمنين.

وبهذا الإتّجاه اشترط أن تكون الخلافة له ثم للحسين.

وسياسياً كان الحسن (ع) يرعى صالح الخط، لأنّه يرعى صالح الإسلام نفسه.

والأمة اليوم أمام مفترق طرق، والإسلام يواجه ضربة عنيفة، ضربة يسدّدها معاوية لتركيع الوجود الإسلامي كلّه، والإنزلاق به إلى وادي معاوية وبني معاوية، حيث تتحرَّف وتموّه وتزيفَّ كل مّفاهيم الرسالة ثم تخرج إلى الناس باسم الرسالة وهنا كان الحسن (ع)..

كان مسؤولا عن وضع العلائم والدلائل على الخط الآخر، والايضاح للناس انّ خط معاوية ليس هو خطّ الإسلام الحقيقي، انّما خط (أهل البيت).

وإذا كان هذا هو خطّ الإسلام فالحسن يسعى لصالح هذا الخطّ..

كان من أهم أهداف الحسن (ع) في الصلح الحفاظ على الوجود الشيعي المهدّد، والذي يواجه أخطر محاولة لتصفية نهائية أخيرة.

ولقد استطاع (ع) أن يستخدم حتّى معاوية نفسه لترسيخ هذا الخط من حيث لا يشعر فقد إشترط عليه " أن لا يتتبع شيعة عليّ وأن يعطي من له شهيد وأن لا يسبّ عليا ً".

وبالرغم من انّ معاوية لم يلتزم بذلك عملياً، الا انّه سجلّ على نفسه وفي التاريخ محتوى هذا الخط، ووجود هذا الخط.

فهناك علي، وهناك شيعة علي، والحرب ليست حرب أشخاص وإنّما حرب خطوط.

لقد اشترط عليه أن يرفع السبّ عن علي.

ولقد كان معاوية يدرك حقيقة المعركة، كما كان الحسن والخطّ الشيعي كلا

يدرك حقيقة المعركة.

والاّ فما معنى أن يتخذ معاوية سبّ علي سنةً، والحال قد انتهى علي.

وما معنى أن يعلن للناس الواعة ممن ذكر حديثاً في علي.

وما معنى أن يكتب لعملائه في الأقطار أن يضعوا في الشيخين وفي عثمان وفي عموم الصحابة مئات الأحاديث، ولا يدعوا فضيلة لعلي الاّ وجاؤوا بمثلها وأحسن منها للشيخين.

لقد بدأت معالم الخطوط تتّضح أكثر وتتجدد، وأصبح خط علي يأخذ موقعه، وسوف نرى بالتدريج أنّه سيصبح في نظر الناس الخط المعبّر عن الإسلام انُظروا....

بعد سنوات، وبعد أن مات الحسن ومعاوية وجاء يزيد، ظهر أكبر تكتل في الوسط الإسلامي يحمل اسم علي.

انّ علياً قد انتهى بشخصه، كما انّ خصوم علي قد انتهوا بأشخاصهم، لكن عليا يمثّل خطا ً.

لقد ظهر أكبر تكتل يحمل اسم شيعة علي، والآن دعا لبيعة الحسين.

والحسين حينما ثار ماذا قال للناس؟ لقد جمع الحجيج وخطبهم معلناً عن بطلان حكومة يزيد، وداعياً للثورة عليها.

كان واحداً من أهداف الحسين في نهضته أن يركز الخطّ ولو نظرياً، وفي فهم الناس. كيف؟

لأن آلاف الناس في الكوفة دعوا الحسين لمبايعته، وقالوا نحن شيعتكم وأنتم قادتنا ولا غيركم.

لماذا لم يكتب هؤلاء إلى رجل آخر من رجالات الإسلام؟

إلى عبد الله بن عمر، وإلى عبد الله بن الزبير؟ لماذا الحسين خاصة؟ صحيح

انّ الحسين هو ابن علي، ولكن عبد الله بن عمر هو أيضاً ابن عمر؟!

انّهم أصبحوا يدركون انّ خطّ علي هو الخط الذي يحمل هموم الرسالة، ولذلك فهو الذي يعاديه خصوم الرسالة.

والحسين يريد أن ينمي هذا الشعور، ويعمق هذا الفهم، وهو لذلك لا يريد أن يخيب ظن هؤلاء به، وبالتالي يفقدوا ثقتهم بالخط كلّه.

وهو حتّى لو علم بأنّهم خاذلوه فيما بعد وتاركوه، فانهّ لا يترك الجهر بهذا الصوت لكي يعرف هذا الصوت.

تركيز الخط، ووضع قواعده، وجرّ الناس إليه، كان واحداً من أهداف ثورة الحسين.

انّ الدم الذي سال في كربلاء لم يجف حتّى عرف الناس كلهمّ ان أهل البيت هم رمز الإسلام ومركزه. ليس الحسين وحده ولا وحده ولا، انّما أهل البيت كلّهم.

ولذا فإنّ الدعوات والثورات التي اعقبت ثورة الحسين، كانت جميعاً تحمل اسم أهل البيت.

أرأيت الآن ماذا صنع علي والحسن والحسين (ع).

انّهم وضعوا القاعدة، أو بالأحرى ركزوا القاعدة التي وضعها رسول الله (ص)، ركزوها نظرياً.. من خلال تأكيد وتعميق وترسيخ صوت أهل البيت. وركزوها وجوداً وخارجاً.. من خلال رعاية المؤمنين بالخط وتحصينهم، وجرّ الناس الآخرين للدخول في قواعد الخط.

وبهذا بدأ يتكاثف بسرعة هائلة عدد الشيعة المؤمنين بأهل البيت، ورسخ في فهم الناس خطّ أهل البيت بوضعه الطريقة الصحيحة للإسلام.

المهمة الثانية: مواجهة المشكلة العلميّة:

لسنا بحاجة إلى تكرير الحديث عن أصل المشكلة، حجمها ومناشئها.

فإنّ طبيعة التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت بعد عصر الرسول (ص) كفيلة بأحداث تراكماً في الأسئلة، سواء في القضايا الشرعية أو العقيدية، وسواء ما يتعلق بالأحوال الشخصية، أو الأحوال المدنية والإدارية والسياسية.

خصوصاً وانّ عمر التجربة المحمديّة كان قصيراً، فقد مضى رسول الله (ص) وبعد لم يكمل فتح الجزيرة، ولم يعش محمد (ص) الاّ عشر سنوات كانت مكرّسة لبناء المجتمع الإسلامي ووضع خطوطه الأولى.

أمّا الآن:

فهناك الوقائع التي لم يُسئل عنها رسول الله (ص) ولم يكن له فيها حديث، وهناك المسائل المستحدثة التي طرأت على المجتمع الإسلامي بأخرة، كمسائل الإقتصاد، والإدارة.

وهناك الإحراجات العلمية العنيفة التي يثيرها علماء اليهود والنصارى ممن لم يواجهوا رسول الله أيام حياته.

ولقد كانوا سألوا رسول الله (ص) أيام حياته عن مسائل شتى، سألوه عن الروح، وعن الساعة، وعن الأهلة، وكان رسول الله مسدّداً بالوحي فلا يقف عند سؤالهم.

أمّا وقد غاب شخص الرسول (ص) فإن على أمّة الإسلام أن تجيب وتواجه كلّ التحديات.

وتاريخ الإسلام في هذه الحقبة سرد لنا العديد من الأسئلة التي تقدم بها علماء أهل الكتاب، بغاية إحراج المسلمين، وانتزاع ثقتهم بأنفسهم ورسالتهم، هذا عن أصل المشكلة العلمية.

وما يهمّنا الآن هو التعرف على مستوى استعداد الأمة، وقدرتها على مواجهة

المشكلة، وتذليل صعابها، والتعرف ثانياً على درجة خطورة هذه المشكلة، وعن أثرها في تاريخ الرسالة.

أمّا استعداد الأمة فانّه بلا شك لم يكن بمستوى المشكلة، ولم يوفرّ الحد الأدنى لحلها.

والاّ لم تلجأ الخلافة الحاكمة إلى فتح باب الرأي، والاجتهاد الشخصي، ولم تتورط الأمة في اختلافات فقهية كثيرة وعريضة بين الصحابة أنفسهم، حتّى انّهم اختلفوا في أبسط المسائل في طريقة الوضوء، والصلاة على الميت، والتشهد في الصلاة، والتيمم، وغسل الجنابة، فكيف بالمسائل النادرة، والمعقّدة، والجديدة. بل كانت الخلافة الحاكمة تمنع من السؤال وتعاقب عليه أحياناً، لقد أثقلت المشكلة العلمية ظهر الخلافة الحاكمة، حتّى كان أبوبكر يستقيل بيعته، وكان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن.

أمّا درجة خطورة هذه المشكلة فيمكن تسجيلها فيما يلي:

أولا: حينما تكون الأمة عاجزة عن مواجهة التحديّات العلمية، كما وعاجزة عن التعرّف على وجهة نظر رسالتها في مجموعة كبيرة من الأحداث والمسائل نتيجة لعدم استيعابها للرسالة، فإنّها ستقترب إلى الشك برسالتها تدريجياً، وتفقد الثقة بها، بوصفها الرسالة الشاملة والصحيحة.

وإذا لم يدعها ذلك إلى الشك في رسالتها، فانّه سيدعوها حتماً إلى الشك في امكانية العمل في ضوء تلك الرسالة، والحال انهّا لا تملك تفاصيلها، ولا مستوعبة لها.

انّ أخطر مشكلة تواجهها الرسالات عموماً هي الفراغ الذي يحدث بموت القائد، وعدم وجود البديل الكفؤ له، والمستوعب لكل مفاهيم وأبعاد الرسالة. وفي كثير من الأحيان تعتبر ساعة موت القائد ساعة موت الرسالة كلّها.

ومنشأ الخطورة انّ هذا الفراغ يكون باعثاً على القلق، وداعياً إلى الشك في

حقانيّة تلك الرسالة، أو في قدرتها على النجاح.

وهذا الشك يعني انّ الأمة سوف لا تكون مستعدّة للتضحية من أجل رسالة مشكوكة، ولا حريصة كل الحرص على مستقبلها، وبالتدريج يتحول هذا الشك إلى انسحاب عن الرسالة واستبدالها.

وفي تاريخ الإسلام شاهد على هذه الحقيقة.

فيوم ظنّ المسلمون انّ محمداً (ص) قد قتل . في معركة أحد . ماذا حدث؟ لقد تخلى الجميع . عدا نفر قليل . عن الرسالة، ونفضوا أيديهم منها، لا خوفاً من القتل، وانمّا يأساً من الانتصار الحقيقي، لأنهمّ لم يكونوا بمستوى الرسالة، ولا هضموها فكيف يقاتلوا من أجلها؟

ويوم مات رسول الله (ص) ارتدّ كثير من الأعراب لماذا؟

لا حبّاً في الجاهلية، واعتزالاً بالشرك، وانما لفقدان الأمل بالرسالة الجديدة، واليأس منها.

والواقع انّ المشكلة لم تكن تواجه الأعراب وحدهم، كما ان قمع حركة الردّة بإرسال الجيوش لها لم يكن ليمنع من ردّة بطيئة تجتاح الأمة المسلمة كلّها وليس الأعراب وحدهم.

انّ المهاجرين والأنصار سيقعون في أسر المشكلة يوم يستشعرون الفراغ، ويوم لا يجدون رسالتهم عند كل نداء، وكل سؤال.

وحينذاك تتحقق ردّة غير معلن عنها، لكنّها ردّة على أي حال، وتنكرٌ للرسالة، وابتعاد عنها، وكفر بقيمها وقيمومتها.

ثانياً: حينما تعيش الأمة وقيادتها أيضاً درجة من القصور العلمي، فإنهّا ستضطر لا محالة إلى اصطناع وسائل من أجل سدّ الفراغ.

وتسبغ عليها طابع الشرعية في الوقت نفسه.

لكن هذه الوسائل بطبيعة الحال ليست شرعية، ولا مدوّنة في أصول الرسالة،

وانّما هي مصطنعة، وموضوعة لسدّ الفراغ، والتغلب على المشكلة العلمية.

فإنّ اصطناع مثل هذه الوسائل ليس في صالح الرسالة، ولا يعالج المشكلة جذرياً، ما دامت وسائل دخيلة، ومتطفلة على الرسالة.

ونستذكر هنا على سبيل المثال الوسائل التي اتّخذتها خلافة السقيفة لسدّ الفراغ.

أولاً: النهي عن السؤال حول معاني الآيات القرآنية.

ثانياً: فتح باب الرأي والاجتهادات الشخصية.

أمّا الأسلوب الأول فواضح انّه لا يحل المشكلة فإنّ السؤال سيبقى مادام لهذا القرآن بقاء، والنهي عن السؤال اعلان عن العجز، وخلق حالة غير طبيعية ولا صحيحة في تعامل الناس مع الكتاب الكريم.

أمّا الأسلوب الثاني فهو من ناحية لا يضمن لنا صحّة الموقف المتخذ على أساسه، مادام رأياً شخصيا غير مستند إلى الوحي.

وهو من ناحية ثانية سوف لا يقتصر على دائرة المسائل الخالية من نصّ شرعي وانّما يتجاوزها طبيعيا إلى دائرة النصوص الشرعية.

لأن الرأي حينما يوضع مصدراً للشريعة، وفي صف الكتاب والسنّة، فإنّ ذلك سيهونّ كثيرا الخروج على الكتاب والسنة مادام الرأي متّبعاً.

ومن هنا لوحظ انّ خلافة السقيفة لم تعمل بالرأي في حالة عدم وجود النص الشرعي فقط، وانّما استهانت بقيمة النص، وخرجت عليه في أكثر من مرّة، بل وأعطت نفسها الحقّ في أن تنسخ الأحكام الشرعيةّ وتبدلها إذا شاءت. حتى كان عمر

يقول: " متعتان أحلّهما محمد وأنا أحرّمهما " ومعلوم انّ الرسالة حين تخضع لاختيارات الناس واجتهاداتهم الشخصية فإنها تسير إلى الموت المحتوم.

والآن ما هو دور علي؟ ودور الطليعة الشيعية عموماً.

كان وحده القادر على انقاذ الأمة من هذا المأزق، لكنّه لا يستطيع أن يفعل كل

شيء بالطبع، لأن تحفظات الخلافة الحاكمة سياسياً كانت تنعكس على هذا الجانب بالذات، وبالتالي فإنّ علياً مدعو للتوفيق بين مهمّته وبين تحفظات الخلافة قدر الإمكان.

كان عليه أن يؤدي مهمّته دون أن يثير الشكوك، ودون أن يدع الخلافة الحاكمة تتحفز للحذر منه.

وانّه في ظل وضع سياسي من هذا القبيل لا يستطيع أن يرتبط بالأمة مباشرة ضمن حلقات تدريس كبيرة أو صغيرة، كما لا يستطيع أن يدعو الأمة لنفسه، ولترجع إليه في مسائلها العلمية، فمن المتوقع جدّاً أن لا تكون هذه النشاطات مسموحة له، طالما تخلق له في الأمة مكانة اجتماعية تحذر منها الخلافة الحاكمة.

كان عليه أن يتحرك بكل هدوء، وينتظر فرصة اضطرار الخلافة الحاكمة للرجوع إليه، دون أن يقدّم نفسه أولا بأول.

وانّ له تجربة سابقة مع الخلافة الحاكمة عرفته كم يجب أن يتخذ من الهدوء في هذا المجال، والا فإنه سيحرم الأمة من طاقاته العلمية.

ذلك يوم جمع القرآن، وقدّمه بين يدي الخليفة الأول فرفضه. انّ هذه التجربة ذات معنى كبير وواضح.

ومن هنا وجدنا علياً حتّى في عهد الخليفة الثاني، حيث برز نجمه، فكان مرجعاً للمسلمين وللخليفة علناً، حتى في هذا العهد كان كثيراً ما يجتنب الابتداء بالقول، وينتظر أن يسأله الخليفة فيجيب.

وعلى الرغم من صعوبة هذا الوضع فقد استطاع علي أن يكون مرجعاً للخليفة الأول وللثاني ولعموم المسلمين.

كان علي هو الذي يجيب علماء اليهود والنصارى الذين وفدوا بلاد الإسلام لاختبار الخليفة، وزعزعة ثقة المسلمين برسالتهم.

والتاريخ يجمع لنا أكثر من قضيّة في هذا المجال.

كما انّ الصحابة أنفسهم كانوا يرجعون الناس إلى علي فيما أشكل عليهم من الأمور.

أمّا في عهد الخليفة الثاني فقد أصبح هو الرجل الأول والأخير في هذا الجانب، حتّى كان الخليفة يمشي إليه سائلا حين يعزب عنه الجواب.

ولقد بلغت مشاركة علي (ع) إلى حدّ كان يتعوذ الخليفة من معضلة ليس لها أبو الحسن، وانهّ ليلوح إليه في كل ملمة، ويشعر بالاطمئنان مادام علي موجوداً، لقد كان يقول حين يواجه مسألة لا يعرف حلّها: " ليس لها الا أبو الحسن ".

على انّ قيمة هذه المشاركة ليس ـ فقط ـ فيما يعطيه علي من اجابات عن مسائل متفرقة هنا وهناك، وإنّما في تعزيز ثقة الأمة برسالتها، وربطها بها أكثر فأكثر.

انّ المردود النفسي لهذه المشاركة، في نفس الخليفة، وفي مجموع الأمة أهم للرسالة، وأكثر نفعاً.

لقد استطاع علي من خلال تصدياته لكل الأسئلة والإحراجات العلمية، سواء ما تقدّم بها علماء أهل الكتاب، أو ما تورّط فيها المسلمون أنفسهم، ان يُقنع الأمة جميعاً بأنها تملك الحقيقة، وتملك التفوق على كل الخصوم، وان رسالتها لا تنفد، ولا تعجز عن اجابتهم عند كل نداء.

* * *

وكان علي يشارك لا بنفسه فقط، وإنّما بامتداده وبتلاميذه.

كان هناك (عبد الله بن عباس) حبر الأمة، وعلماً كبيراً في القرآن والسنة، وكان له مع الخليفة الثاني صلة وثيقة غاية الثقة.

لكن ابن عباس هذا يعترف بإنّه تلميذ من تلامذة علي (ع) وانّه علمه لا يساوي إلى علم علي الا كقطرة من بحر.

المهمة الثالثة: الرقابة الرسالية:

مازال الباحثون يؤكدون القول بأن علياً كان معارضاً للخلفاء الثلاثة، على اختلاف في درجة هذه المعارضة بين عهد الأول والثاني وبين عهد عثمان.

وهذه الظاهرة هي ما نريد أن نشرح حقيقتها الآن، ونعرف موقعها من مهمات الخط الشيعي في هذه المرحلة بالذات.

انّ المدلول الحقيقي لهذه المعارضة ذو عمق رسالي وبعد ديني كبير. وليس كما قد يبدو للخيال أن طبيعة الصراع القديم بين علي والخلافة الحاكمة هي التي خلقت هذه الظاهرة، ووضعت علياً في موضع المجابه للخلافة.

الواقع انّ هذه المعارضة كانت تمثيلا لمهمة الرقابة الرسالية على مسير التجربة بعد الرسول (ص).

فلقد كان متوقعاً أن تسير الأمة بعد رسول الله (ص) باتجاه منحرف، ولقد شهدت الأمة حقاً بدايات الانحراف، كما ان سقيفة بني ساعدة ـ على ما تقدّم ـ لم تكن بمستوى حاجة المرحلة، بل هي نفسها قد تورّطت في عثرات انعكست آثارها بسرعة على الرسالة.

كان لابدّ من رقيب يشرف على كلّ خطوة خطوة، سواء لمجموع الأمة أو لخصوص الخلافة الحاكمة. ولقد كانت الخلافة نفسها تعترف بحاجتها لهذا الرقيب كان أبوبكر يقول: "وليّت عليكم ولست بخيركم" و يقول: "إذا زغت فقوّموني".

لكن من هو هذا الرقيب..؟

الأمة بمجموعها لا يمكن أن تكون هي الرقيب، لأنّها لم تستوعب رسالتها، ولم تهضم قيمها، ولا تخلصت من رواسب

الماضي تماماً. ومثل هذا المستوى كيف يعطى حقّ الرقابة؟!

هذه الأمة نفسها هي التي أخبر الرسول (ص) انّها ستشهد الفتن، وستعيش الانحراف، وتتبع سنن اليهود والنصارى، حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلوه، كما في النص النبوي.

وهذه الأمة هي التي ستعرض على محمد (ص) فاذا بقوم من أصحابه يجاؤون دونه فيقول: يا رب أصحابي أصحابي، فيقال: انّك لا تدري ما أحدثوا بعدك كما جاء في الحديث الشريف عنه (ص).

مثل هذه الأمة كيف يمكن أن تكون هي الرقيب على مسير التجربة؟! ومتى تستطيع أن تقوّم الخليفة إذا زاغ، وترشده إذا انحرف؟ ومن يضمن أن لا تنحرف هذه الأمة بانحرافه، وتسير مثل سيره؟ أليس شهدنا ذلك عياناً في عهد عثمان؟! حتّى كان ليحرّف الصلاة فيتبعه الناس خوف الفتنة، وخوف الشقاق؟!

على انّ الأمة لم تكن مستعدّة لجلب غضب الخلافة وعدائها.

وهي لا تملك من الوعي قدراً يشعرها بضرورة التضحية في هذا السبيل، كما انّها لا تملك قدراً من الوعي والنضج يمكنها من تشخيص الانحراف ثم محاربته.

ومن هنا لم يجرأ أحد لمعارضة أبي بكر يوم أسقط الحدّ عن خالد سوى عمر. ولم يجرأ أحد أن يعارضه حين أراد مخالفة السنّة في قطع يد السارق، بينما أراد قطع رجله، الاّ عمر بن الخطاب أيضاً، حيث كان يأمن سطوة الخليفة، ولا يخشى سخطه.

ويوم حكم عمر بن الخطاب كان الناس يهابون درّته، حتّى ليخافونها أكثر مما يخافون الله، وفي مثل هذا الحال من كان يعترض على الخليفة؟ ولأدنى شيء كانت الدرّة تعلو الرؤوس، وتلوّع الأبشار.

قليل هم الذين يملكون القدرة على مواجهة الخليفة، والاستعداد لتحمل غضبه.

إذن مثل هذه الأمة كيف تعطى القيمومة، ويوكّل إليها الإشراف على الرسالة.

ومهمة الإشراف والرقابة تتطلب زائداً على الاستيعاب لكل تفاصيل الرسالة التأثر المطلق بها، والالتحام التام مع مفاهيمها وقيمها، والقدرة على تجسيدها عملياً وتوجيه السلوك على اساسها، وهذا ما لم يكن متوفراً حتّى للخلافة الحاكمة، على ما تقدمّ الحديث فيه مفصلا.

انّما شخص واحد كان هو القادر على اداء هذه المهمة، لأن الرسول (ص) أعدّه خصيصا لهذه المهمة.

ولقد سبق أن أعطاه رسول الله (ص) هذه القيمومة على الرسالة وعلى التجربة.

فكان يقول: " إذا أقبلت الفتن فعليكم بعلي ".

لكن علياً بعد أن صرف عنه الحكم، كان مسؤولا عن توجيه وتصحيح مسيرة التجربة الإسلامية، والسعي من أجل إنجاحها لفترة أطول.

وإذا كانت التجربة قد بدأت بالتعثر، والإبتعاد التدريجي عن واقع الإسلام، فإن ما كان في مقدور علي، وتحت مسؤوليّته، هو مواصلة الجهد من أجل تخفيف سرعة الانحراف، ومن أجل الحفاظ على قيمومة الرسالة في الأمة لعمر أطول.

وهذا الهدف هو الذي جعله يبرز بصفة معارض للحكومات الثلاثة.

ورغم انّ العلاقة بينه وبين الخليفة الثاني تحسنّت فيما بعد، فإن ذلك لم يمنع من تسجيل طابع المعارضة في مواقف علي، لكنّها المعارضة التي تحمل معنى التصحيح والتوجيه واحياناً الضغط والمواجهة من أجل التحفظ على قيمومة الرسالة قدر الإمكان.

انّ أخطر مشكلة كانت تواجه الرسالة بعد الرسول (ص) هي أن تفقد تدريجياً قيمومتها في الأمة، وفي نظام الحكم، وتسقط كلمتها عن الاعتبار، وتنسحب

تدريجياً من الساحة، ويتحول مجتمع الإسلام إلى مجتمع غير ملتزم، كما يتحولّ نظام الحكم إلى فوديةّ مطلقة مستبدة لا تخضع لأحكام الإسلام، ولا تلتزم بها، كما حدث أيام معاوية بكل وضوح حيث أعلن صريحاً: " ما قاتلتكم لتصوموا أو تصلوّا ".

وخلافة السقيفة مهما جهدت في التزام الإسلام، وتسيير الأمة على أساسه، الاّ انّ الضرورة كانت ما زال قائمة لاشعارها بالمقاومة لو دخلت بدايات الانحراف أليس أبوبكر نفسه كان يقول: " إذازغت فقوموني ".

وكان يقول أيضاً: " إذا غضبت فاجتنبوني ".

ربما تقع الخلافة في غفلة، وربما وقعت تحت تأثير عواطف، ونزعات، وميول نفسية تحرفها عن تطبيق حكم الرسالة، وربما انحرفت وهي لا تشعر بالانحراف، وربما اتخذت موقفاً وهي لا تعرف خطورته على الرسالة في المستقبل القريب أو البعيد.

كل هذه الاحتمالات موجودة، مادامت الخلافة الحاكمة غير مستوعبة للرسالة تماماً، ولا متخلصة من رواسب الماضي العتيق.

وإذا لم يقف أحد بوجه الانحراف، يقوّم زيغ الخليفة، ويضطره إلى اتباع الحق، فانّ الانحراف سيتسع لا محاله، وسوف يكبر وينمو ويزايد، وتنهار التجربة الإسلامية في أسرع وقت، وفي أقصر عمر.

كما انّ الإستسلام لرأي الخليفة ولو كان على حساب حكم الشريعة سيهدم قيمومة الرسالة في نظر الناس، وسوف لا تكون كلمة القرآن، وسنّة الرسول (ص) هي الحاكمة، وهي القيمّة.

وهذا أمر حدث بالفعل فقد كان الناس يتبعون رأي الخليفة وهم يعلمون مخالفته للقرآن والسنّة.

ولا حاجة لشرح خطورة هذا الواقع على الرسالة.

ومن هنا سعى الخطّ الشيعي في هذه المرحلة لأمرين:

أولا: الضغط على الخلافة الحاكمة، من أجل التطبيق الحرفي لأحكام الرسالة، القرآن والسنّة.

ثانياً: اعلام الأمة باستمرار انّ كلمة الرسالة هي القيمّة، وأن ليس من صلاحيات أحد مهما كان موقعه في المجتمع أن يتصرّف في أحكام الرسالة، أو يخرج عليها. وانّ من حق كّل شخص بل من مسؤوليتهّ أن يعترض على أية مخالفة للقرآن والسنّة مهما كان عنوانها وبأي غاية، مادام ذلك خرقاً لقيمومة الرسالة وخروجاً عليها.

وعلينا أن لا ننسى ونحن ندرس هذه المهمة، أثر الوضع السياسي الذي كان يعيشه الخطّ الشيعي في هذه المرحلة. ففي الوقت الذي التزم الخطّ هذه المهمة، كان يدرك انّ قوا كًبيرا مًن التحفظ والاحتياط والاناة يجب التزامه، والا فانّ المجازفة في هذا السبيل تعني انتحار الخطّ كلهّ والقضاء عليه.

ومن ذلك وجدنا انّ مستوى النشاط في هذه المهمة يتبع تقلبات الوضع السياسي. كما ويتبع أيضاً حجم المخالفات التي تتورط بها الخلافة الحاكمة وعلى العموم كان الشيعة يمثّلون دور الرقيب والمصحّح.

(2)

عصر الأئمة (عليهم السلام)

الموقف السياسي

لحدّ الآن نكون قد أوضحنا مهمّات الدور الأول من مرحلة عصر الأئمة (ع) حيث لخصّناها في المهمات الثلاث:

1 . بناء القاعدة الشيعيّة.

2 . مواجهة المشكلة العلميّة.

3 . دور الوقابة الرساليّة.

أمّا الآن فلننظر وفي ضوء تلك المهمّات ما هو الموقف السياسي الذي اتخذه أئمة أهل البيت (ع) وشيعتهم في هذا الدور.

ولا ننسى انّنا مازلنا نتحدث عن الدور الأول من مرحلة عصر الائمة (ع) وهو الدور الممتد من وفاة الرسول (ص) وحتّى مقتل الإمام الحسين (ع)، والذي يستوعب حياة الأئمة الثلاث الإمام علي والحسن، والحسين . عليهم السلام .، حيث اعتبرنا هذا الدور دوراً متميزاً في خصائصه والمهمّات المطلوبة فيه.

سوف ندرس الموقف السياسي في فصول أربعة:

1 . علي (ع) في عهد الخلفاء الثلاثة.

2 . علي (ع) في خلافته.

3 . صلح الإمام الحسن (ع).

4 . ثورة الإمام الحسين (ع).

علي (ع) في عهد الخلفاء الثلاثة

قبل أن نتناول بالبحث موقف الإمام علي (ع) من الخلفاء الثلاثة، نودّ أن نستوضح موقفه بعد رسول الله (ص) مباشرة، وما هي الأمور التي حجزت بينه وبين تسلّم الحكم.

فالثابت تاريخياً انّ الامام لم يشترك في مؤتمر السقيفة الذي حضره الأنصار وحضره من المهاجرين أبوبكر وعمر وأبو عبيدة، وهو في ذات الوقت لم يجب دعوة العباس حين قال له: " امدد يدك أبايعك فلا يختلف عليك اثنان "، وقد علل رفضه

لهذا الطلب بالقول: " أترى هذا الأمر يكون لغيرنا؟! ".

انّ هذا الموقف السلبي من الامام سواء في عدم اشتراكه مع المؤتمرين في السقيفة، أو في رفضه لطلب العباس، قد يفسرّ بشيء من عدم الحيطة السياسية، ويساعد على القول انّ التوسل واللامبالاة التي تمثلّ بها الإمام (ع) في موقفيه هي التي صرفت عنه الحكم، وفي المقابل كانت روح المبادرة، والحيطة السياسية في الجانب الآخر هي التي أحرزت لهم الحكم.

ولقد بدا موقف علي (ع) بعد الرسول (ص) كما لو كان فيه كثير من حسن الظن، كما فيه كثير من البرود والتباطؤ، والمعروف انّ العمل السياسي الناجح يفرض التحسب لأدنى الاحتمالات، كما يفرض الاقدام السريع واغتنام الفرص.

لقد كان يتسع لعلي .وما زلت أُقرر هذا القول . أن يصنع شيئاً كثيراً في هذا المجال.

كان يستطيع أن يشترك في السقيفة وربّما يكسب إليه كل الأصوات أو معظمها، وكان يستطيع أن يشترك في مؤتمر غير ذاك المؤتمر، يأخذ فيه البيعة من عمّ الرسول (ص) وسائر الهاشميين وجميع أنصاره والمخلصين له من المهاجرين والأنصار، وحينذاك يقطع الطريق أمام كلّ المحاولات الأخرى،ولا يختلف فيه اثنان كما أشار إليه العباس.

لكن علياً بدأ وكأن الأمر لا يُعنيه، فقد آثر أن يشتغل بتجهيز رسول الله (ص)

قائلا لعمّه العباس:

" أترى هذا الأمر يكون لغيرنا ".

وقائلا للأنصار فيما بعد:

" أو كنت أترك رسول الله (ص) ميتاً في بيته لم أجهزه وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه ".

غير انّ علياً ليعلم حق العلم انّ قريشا لًا تنام لها عين ان تركت الأمر يصير إليه، وانهاّ لتجد في راحة الحكم عنه كل الجد وأقصاه، ولقد أخبره الرسول بأن الأمة ستنحرف عنه، وتتمالأ عليه.

فأي معنى بعد ذاك لأن يقول: " أترى هذا الأمر يكون لغيرنا؟ " كما انّه ليعلم حقّ العلم ان قضية الحكم، وقيادة التجربة أمر تهون عنده سائر الأمور، إن لم يكن فيها سخط الله.

ولئن كان انتصاره يدعوه لأن يترك جثمان رسول الله (ص) ساعات فأي مانع يقف دون ذلك؟ أو ليست قضية الحكم هي قضية مصير الإسلام كلّه. ألم يكن جديراً أن يؤجل غسل رسول الله ساعات حتىّ يفرغ من موضوع الخلافة، ويقطع على الآخرين طريقهم، ثم يرجع وقد صار أمراً؟!

وما يمنع علياً أن يقبل طلب العباس، وهو يتطلب منه حتىّ ترك الجثمان الطاهر؟!

هذا قول قد يقال في موقف علي (ع).

وتلك ملاحظات قد تؤخذ عليه.

فما هو مدى الصحّة في هذا القول؟ ومدى العمق في تلك الملاحظات؟ هل كان الامام قادراً على الإشتراك في مؤتمر

السقيفة؟

ولو أنّه اشترك فهل كان حليفه النجاح؟

الحقيقة انّه لا يوجد دليل تاريخي على انّ علياً سبق له العلم بمؤتمر السقيفة

ثم آثر اعتزاله عن عمد، بل انّ الدلائل تشهد على انّ مؤتمر السقيفة أحيط بقدر كبير من الكتمان.

فالأنصار هم الذين سبقوا إلى عقده، دون أن يبعثوا إلى أحد من المهاجرين، وحين انتهى خبره إلى عمر بن الخطاب لم يرغب أن يخبر عنه سوى أبي بكر، ولقد كان جالساً في بيت له خارج مكّة فأرسل إليه عمر من يقول له:

" حَدَثَ أمرٌ لابد أن تحضره ".

وفي الطريق صادفا أبا عبيدة فاصطحباه على ما تقول الرواية.

فأنت ترى انّ أحداً من الهاشميين وغيرهم من أنصار علي لم يقف على خبر السقيفة، بل وكلّ المهاجرين سوى هؤلاء الثلاثة.

والرسول الذي بعثه عمر لم يفصح للجالسين حقيقة ما حدث، انّما قال له: " حدث أمرٌ ".

حتّى انّ أبابكر (رض) اعتذر أولا، ثم أجاب حين أرسل إليه عمر ثانياً من يؤكد له ضرورة الخروج.

ولقد كانت مفاجئة لعلي، وشيعة علي، بل وعامة المسلمين ممن لم يحضر السقيفة، حينما أعلن عن بيعة أبي بكر، وربما تصوّر لنا الحال رواية البراء بن عازب حيث قال:

" لم أزل لبني هاشم محباً فلما قبض رسول الله (ص) تخوّفت أن يتمالا قريش على اخراج هذا الأمر عن بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الوالهة العجول.. "[1].

وعلى هذا يكون من المؤكد انّ علياً حين لم يحضر السقيفة، كما لم يحضرها أحد من أنصاره ومؤيديه، لم يكن ذلك عن عدم قناعة بضرورة الحضور ظناً بفشل الاجتماع، وعدم توقع لخروجه بنتيجة حاسمة تزيحهم عن مقعد الحكم والقيادة.

1- أعيان الشيعة، 20: 276 نقلا عن شرح النهج.

بل ربّما كان ذلك للسريّة التي أحيط بها المؤتمر، ومحاولة كتم خبره عن الخط الشيعي خصوصاً، وعن مجموع المسلمين عموماً.

والاّ فبماذا نفسّر عدم اشتراك أحد من المهاجرين سوى أبي بكر وعمر وأبي عبيدة؟ أم انّ مصير الأمة ومصير الإسلام لا يهمّهم جميعاً؟!

على انّا نحسب انّ من التسرّع في الحكم، وعدم التقدير الجيدّ للأمور، القول بأن اشتراك علي في المؤتمر كان يضع الحكم بيده، ويحبط كلّ المحاولات الأخرى.

فالشيء الثابت والواضح انّ غلبة المهاجرين على الأنصار في مؤتمر السقيفة ترجع في أحد عواملها المهمة إلى وحدة صف المهاجرين وتفوق صف الأنصار.

فلقد ذكّرهم أبوبكر بالشجار التاريخي الطويل بينهم، والذي استنزف دماء الأوس والخزرج معاً، وهم بعد قريبوا عهد بهذا الماضي، ومن هنا عادت لهم الذكريات، والأحقاد، والضغائن، بما دعا مشايخ الأوس إلى الإسراع في بيعة أبي بكر، حسداً منهم لسعد بن عبادة شيخ الخزرج، وكان هو مرشح الأنصار للخلافة.

فالمؤرخون يذكرون انّ أوّل من بايع أبابكر بعد عمر وأبو عبيدة، وكان من الأوس، وحين أعاد له أبوبكر ماضيهم الدامي القريب. استجاب للأحقاد الجاهلية العريقة، ونهض ونهض معه من حضر من الأوس، فاضطر الخزرج للبيعة.

أمّا ماذا كان يحدث لو حضر علي (ع)؟

بلا شك انّه سيدعو لنفسه، ويدعو له أنصاره الحاضرون فوراً، ولا دليل على أنّ قريشا ستقبل هذا الإقتراح، ولها مع علي ألف حساب. ومن المتوقع جداً انّ مشايخ المهاجرين مثل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة سيرفضون هذا الاقتراح أيضاً، انحيازاً لقريش التي كرهت أن تجتمع النبوة والإمامة للبيت الهاشمي.

وفي ظلّ وضع من هذا القبيل، وشجار عميق بين المهاجرين أنفسهم، سيبقى صف الأنصار متماسكاً، بينما يشتغل المهاجرون بأنفسهم.

والظن بأنّ الأنصار سينحازون إلى جبهة علي ليس مصيباً. فان ميول الأنصار في علي لم تمنعهم أن يبادروا إلى عقد مؤتمر السقيفة ومحاولة جرّ الحكم اليهم. ولا دليل على انهّم كانوا يستجيبون لعلي، ويسمعون دعوته وهم يجدون كفتهم راجحة.

وليس بعيداً انّ خصوم علي من قريش سيميلون إلى الأنصار بغاية دحر علي، وربما يكون لهم مع الأنصار نصيب أمّا مع علي فلا شيء لهم.

ونخرج من هذا الحساب بأن علياً لم يكن عالماً باجتماع السقيفة، وانهّ لو خفّ إليه لا دليل على فوزه فيه.

يبقى هذا السؤال:

لماذا لم يبادر علي إلى أخذ البيعة من عمّه العباس وسائر الهاشميين، وبقية أنصاره ومؤيديه، وحينذاك لا يجد من يريد الخلاف سبيلا للخلاف؟

ولقد كانت تلك هي وجهة نظر العباس يوم قال لعلي:

" يا ابن أخي هلم أبايعك فلا يختلف عليك اثنان ".

وأنا اعتقد انّ الاجابة عن هذا السؤال تدعونا إلى طرح سؤال آخر، وهو ماذا سيقال في هذه البيعة؟ وكيف ستواجه؟ وهل صحيح انّها تقطع الطريق على المعارضين؟

لقد كان ميسوراً للمعارضة أن تخوج على هذه البيعة، بحجّة أنهّا لم تكن بمشورة من المسلمين جميعا، أما بّنو هاشم فهم يجرّون النار إلى قرصهم.

ولعله إلى هذا البُعد كان يشير علي، حين رفض الإستجابة لطلب العباس قائلا:

" لا أحبّ أن يكون هذا الأمر من وراء رتاج ".

على انّ قريشاً كانت على استعداد دائما لأن تصنع كل شّيء دون حكم علي، وهي نفسها التي خوجت عليه يوم تمت له البيعة من عامة المسلمين بعد الخليفة الثالث.

حتّى لقد كان علي يقول:

" اللهمّ انّي استعينك على قريش ومن أعانهم، فإنهّم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي ".

* * *

وإلى هنا أصبح واضحاً أن انفلات الحكم من الامام لا يرجع إلى طبيعة موقفه بعد الرسول (ص)، بقدر ما يرجع إلى العداء التاريخي الذين انطوت عليه نفوس قريش لعلي بن أبي طالب، مهما كان منشأ هذا العداء.

وبقدر ما يرجع أيضاً إلى مستوى الوعي السياسي والديني للقضية الذي عاشته الأمة يومذاك على حديث تقدم لنا في ذلك.

والآن ما هو موقف الإمام بعد أحداث السقيفة، وما تمخَّضت عنه؟

هل يقاتل؟ أم يعتزل؟ أم يتنازل عن خطه؟ أم ماذا؟

لقد كانت أمامه أربعة طرق، كان عليه أن يختار منها ما يضمن له سلامة الإسلام، وما يمهّد له أداء مسؤوليتّه إتجاه الرسالة.

فالإمام لا يثأر لحق شخصي، أورغبة في الحكم، وانّما للرسالة التي جُعل أميناً عليها، واختاره الرسول (ص) لتحصينها وحمايتها.

أمّا ما هي تلك الطرق؟

وأيّها يحقق للرسالة الجزء الأكبر من أهدافها؟

أمّا ان يقاتل بمن معه فيغلب أو يموت دون حقّه؟

وأمّا أن يعتزل الأمة كلها، فلا هو منها ولا هي منه، كما صنع سعد بن عبادة؟

وأمّا إن ينفتح للأمة، ويتصادق مع الحكم القائم، محتفظاً في الوقت ذاته بخطه، وساعياً إلى دعمه، وتصعيده، وتحصينه ليبقى حياً نقياً معوا ً عن جوهر الإسلام، يوم تنحرف سائر الخطوط، وتضيع حقائق الرسالة.

الطريق الأول: المنزلة

ولقد بدا للكثير من الكتّاب انّ الامام . على تقدير نص رسول الله، واستخلافه اياّه . كان عليه أن يقاتل، وان يحمل السلاح، وان ينهض ولو وحده. ولو كلّفه ذلك الموت، مادام يؤمن بحقّه في الحكم بوصية من الرسول (ص) وماذا ينتظر الإمام؟ ولماذا يسكت؟

أليس صدقه معرأيه، وصدقه معرسالته يدعوه لأنّ يقدمّ نفسه وروحه حرصا ً على وصية ّالرسول، وتحقيقا لأطروحته في الحكم بعده.

أمّا وقد سكت الإمام فذاك دليل على انه لم يكن معتقدا ً بوصية الرسول، ولا ذاهبا مذهب الشيعة فيه، "ولو قد علم ان النبي قد أوصى له لجاهد في إنفاذ أمر النبي ولآثر الموت على خلاف هذا الأمر "[1].

كثيرون يذهبون إلى هذا الرأي، ثم يحتجون بموقف الامام على الشعة، من حيث انه لو كان منصوصا ً عليه لكان جديرا ً به بل مسؤولا عن الجهاد.

وأحسب انّ هذا الرأي أريد به هذه الغاية! أريد به مخاصمة الشيعة فيما يدّعون من النص، والا فان كل أحد يعرف ان ّ الجهاد إذا كان يعني الانتحار، وإذا كان يضيّع على الرسالة اكثر مما يجلب لها، وإذا كان لا يحقق صغيراً ولا كبيرا من أهداف الرسالة ولا يسدّ حاجة من حاجاتها، فإن مثل هذا الجهاد ليس هو الجهاد الذي دعا

1- الشيخان، طه حسين: 25.

إليه القرآن وحثّ عليه، إنمّا هو الانتحار المجنون الذي حرمّته الشريعة ونهت عنه ترى ماذا كان يحقق للرسالة لو انه ّآثر الموت في هذا السبيل؟

أولا: سيحرم الأمة من وجوده وعطائه، ثم لا تملك من تلجأ إليه عند المعضلات، ومن يعزز ثقتها برسالها، ويعمق مذاهبها، ويسّد كل ثغراتها، كما درسناه في المهمات التي توفرّ لها الإمام علي (ع).

ثانياً: وحين يضحي علي بنفسه يكون قد ضحى بالخط الشيعي كلهّ.

الخط الذي أريد له أن يحمي وجود الإسلام، كما يحمي حقائق الإسلام من محاولات التشويه والتحريف والتزييف.

ولقدرأينا وسوف نرى انّ تاريخ التشيع كان دفاعاً مراّ مستميتا عن الرسالة، الرسالة النقية النظيفة كما نزل بها القرآن، وحدّث بها رسول الله (ص).

وبومذاك لم يكن الخط الشيعي سوى أطروحة لم تأخذ طريقها إلى الوجود الخارجي بعد، وكان علي هو المسؤول عن بناء قواعدها، وترسيخ خطها، وتعميق مفاهيمها كمارأينا في حديث سابق.

أمّا إذا آثر الموت السريع الارتجالي، وفي غمرة ساعات بل لحظات ضحى بوجوده، وبكل الطليعة الواعية المخلصة للإسلام حقّ الإخلاص، عمار وأبوذر وسلمان والمقداد. فمن يبقى للرسالة؟ ومن يبقى للأمة الفتيّة التي تواجه مخاطر الموت؟ ومن سيعرف موقع التشيع من الرسالة، ومدى صدقه في التعبير عنها.

إنّ هؤلاء يمثلون اللبنة الأولى للتشيع، وحينما ينتهي هؤلاء قبل أن يخلقوا من يسير على نفس الخط، ويحمل نفس الدرجة من الوعي والإخلاص والإلتزام. فذلك يعني موت الخط كاملا، ويبقى المجال مفتوحاً أمام سائر الخطوط لترسم الإسلام للأجيال الآتية حسب طريقتها، وحسب درجة إخلاصها ووعيها للرسالة.

صحيح انّ التضحية قد تكون طريقة للبناء، وتعزيزاً للوجود، ووثيقة الإنتصار والخلود التاريخي، لكن هذا الكلام إنمّا يصح حينما يكون المبدأ قد استكمل بمحتواه النظري، وحصن وجوده الخارجي من الفناء. أمّا إذا كان المبدأ يعيش في المهد فالتضحية بالنسبة له تعتبر انتحاراً، ومجازفة محرّمة.

ألسنا نعلم انّ الإسلام منع أنصاره حمل السلاح ومجابهة قريش، يوم كان المسلمون قلّة، لا يؤمن عليهم من الموت المستغرق، حتّى إذا هاجر الرسول إلى المدينة، وأصبح معلوماً انّ كلمة الإسلام قد رسخت أعلن الجهاد وحمل السيف.

والتشيع بعد الرسول (ص) يعيش بداياته التاريخية الأولى، ولم يكن واضحاً بعد حقيقة هذا الإتجاه، بل كان بحاجة إلى فترة زمنية تتضح من خلالها الأبعاد والتصوّرات الواقعية التي يحملها، ويؤمن بها.

كما أنّ السائرين في هذا الإتجاه لم يكونوا عدداً بمستوى يضمن بقاء بعضهم ليواصل السير، ويعلن للآخرين الحقيقة.

وإذا كان التشيع يعني الإسلام، كما أراده محمد (ص) والقرآن، فإنّ مصير الإسلام مربوط إذن بمصير التشيع، وانّ أي خطر يواجه التشيّع يواجه الإسلام بالذات. وحينئذ تكون التضحية بالتشيع تضحية بالإسلام، لأن الخطوط الأخرى التي لم تهضم الإسلام، ولم تستوعبه، ولم تندمج مع مفاهيمه وقيمه تماماً هي التي ستحكم، وهي التي ستشوّه للأجيال مفاهيم الإسلام، وترسم لهم صورته، وتضع تفاصيله، وحينذاك تبدأ عملية التحريف . عمداً أو خطأً . وبالتدريج يفقد الإسلام لبهّ وجوهره، وحيث لا يبقى منه الاّ القشور فإنّ الأمة سترفضه لا محالة، وهناك يموت تماماً.

انّ من الخطأ أن نعقد قياساً بين نهضة الامام . لو أراد أن ينهض . وبين نهضة الحسين (ع) مثلا.

فالحسين يوم ثار كان التشيع له وجوده وقواعده العريضة، ورغم انّ الحسين قد قتل، الاّ انّ التشيع ظل حيّا بلّ ازداد حياة وتصلباً، لماذا؟ لأنّ القواعد الشيعية كانت موجودة ومبثوثة، ولأنهّ كان هناك من يشرح للناس خط الحسين، وثورة الحسين، ويفضح كلّ محاولات التشويه والتمويه لثورته وحركته وخطّه.

لكن من كان يقوم بهذا الدور لو أنّ علياً وأنصاره ومؤيديه قدموّا أنفسهم مرةّ واحدة وبسرعة وقبل أن يقولوا للناس أي شيء، وقبل أن يعرف الناس عنهم أي شيء، سوى طلب الحكم، والتوصل للسلطة؟!

بلا شك ستضيع هذه الحركة، وتنتهي. كما انتهى سعد بن عبادة مثلا، ثم لا يعرف الناس عنها الاّ انّها حركة وصولية غير واعية،ولا مخلصة للإسلام. الذين يريدون من علي أن ينهض في وضع من هذا القبيل يقعون في مغالطة واضحة، فالجهاد واجب والأصحار بالحق واجب، لكن حيث يكون ذلك خطوة نجاح، أمّا إذا كان خطوة موت، وطريق النهاية، فانّ الصدق هنا مع المبدأ، والإخلاص له، يطلب السكوت والتريث.

ألم يكن محمد (ص) على الحقّ؟وألم يكن صادقاً مع مبدئه ورسالته؟ ومع ذلك فقد قبل صلح الحديبية، ولم يصغ لمن قال له:

ألسنا على الحق؟ إذن لم نعط الدنية في ديننا؟

انّه يعرف الحقّ، ويعرف انهّ على الحق، ولكنه صالح لأنه وّجد الصلح أعود لرسالته،ولأمتهّ الفتية الجديدة، وانهمّ لفاتحون على أي حال اليوم أو في الغد. وفي ضوء هذا الفهم ينبغي أن يوضع السؤال بهذه الصيغة:

كم هو احتمال النجاح في نهضة الامام لو أراد أن ينهض؟

وهل صحيح انّ نهضته تعني الانتحار؟

أمّا في نظر الإمام نفسه فالأمر كذلك،والنصوص التي بأيدينا تاريخياً تؤكد انهّ (ع) كان لا يتوقع لثورته النجاح، أي مقدار من النجاح.

ومن خلال هذه النصوص يبدو وكأنّ الامام مستعد للقتال، وللثورة، لو توفرت له شروط النجاح، أما وهو لا يجد ذلك فجدير به أن يلتزم الصمت. لقد كان يقول:

" لو وجدت أربعين ذوي عزم لناهضت القوم ".

ويقول وهو يشرح حقيقة ما جرى بعد رسول الله (ص):

" فنظرت فاذا ليس معي الاّ أهل بيتي، فضننت بهم عن الموت واغضيت على القذى ".

ولطالما خيّر علي نفسه بين النهوض وبين الصمت، ثم يؤثر الصمت، لأنّ فيه سلامة المبدأ. وهو يصورّ لنا هذا التردد والخيار حيث يقول:

" وطفقت ارتئي بين أن أصول بيد جذا، أو أصبر على طخية عمياء... فرأيت الصبر على هاتى أحجى " لأن اليد الجذاء لا تصنع شيئاً،ولا تستطيع أن تصول.

وفي رواية اليعقوبي انّه:

" اجتمع جماعة إلى علي بن أبي طالب يدعونه إلى البيعة، فقال لهم: اغدوا عليّ محلقّين الرؤوس، فلم يغد عليه الا ثّلاثة نفر ".

وهكذا فقد كان الامام مقتنعاً كلّ القناعة بأن ثورته لا تحقق له النصر.

أمّا صحة هذه القناعة فهو شيء أكيد، وانّ نظرة تحليلية سريعة توضح لنا عدم التكافؤ بين جبهة الإمام وجبهة مناوئيه.

من سيشترك مع الإمام، ومن سيدخل جبهة المناوئة؟

القوى الحاكمة ستقف ضد علي بالطبع، لأنّه طالب فتنة، وناهض بغير حقّ، هكذا في نظرها. وانهّا لم تعفه من البيعة يوم تأخَّر عنها فكيف تراها لو شاهدت علياً بجمع الجموع.

لقد هدّد علي بالقتال، وعرّضت داره للإحراق، لأنهّ تخلفّ عن البيعة، واعتزل الناس! فكيف لو دعا لقتال؟

والحكم القائم لم يكن مستعداً للتنازل أمام علي، بل ولا الإصغاء إليه. وبأي مقصد كان ذلك فانّ علياً سوف لا يجد أمامه الا السيف.

والحكم القائم كان مضطراً لتحصين نفسه لضرب أي حركة مضادّة، وقمعها بقسوة، وبسرعة، حتىّ ولو كان القائم بها هو الإمام علي (ع).

ثم انّ هناك قريش . وما أدراك ما قريش . مملوءة حقداً وحسداً وضغينة للإمام، فأين تراها ستكون؟

وسوى هذا الحقد والحسد والضغينة، فإنّها تعرف علياً جيداً، وتعرف مصيرها لو ولي الحكم علي. انهّ لا يرى لها فضلا ولا كرامةً إلاّ بمقدار ما تعطي للإسلام، ثم هي ذات طمع في الحكم، ولو حكم علي فالأمر لن يصل إليها أبداً علي نفسه يحدثنّا عنها بالقول:

" انّها تنظر في صلاح شأنها، وتحتاط لمنافعها، فتقول: انّ ولي الأمر بنو هاشم لم يخرج منهم أبداً، فاذا كان في غيرهم تداولته بطون قريش ".

وهناك بنو أمية خاصة، وبينهم وبين بني هاشم عداء طويل، ولقد دعا أبو سفيان أولا لعلي، ثم ما لبث أن صافح الحكم القائم يوم أعفاه مما بيده من خمس نجران، وولى ابنه يزيد الشام.

وهناك المنافقون، وجود ضخم خطر طالما أقلق الرسول أيام حياته. ولقد كانوا يعُرفون على عهده ببغضهم لعلي، وهم بعد الرسول أشدّ منهم أيامه، وأحرص على الوقيعة بالإسلام والمسلمين.

ولقد كان بغضهم لعلي بغضاً للرسالة، وبغضاً للرسول، فعلي يمثل الرسول، دمه ولحمه ونفسه، وهو منه بمنزلة هارون من موسى، وانّه لأخوه في الشدائد والملمات، كما أخوه في ساعة اليسر والعافية. وانهّم ليعلمون انّ طعنهم وتجريحهم لعلي ايذاءً للرسول، حتىّ لقد كان يقول: " لا تؤذونني في علي " يكررّها ثلاثا، ثم لا

يعبئون، ثم يعودون للطعن في علي كأن لم سمعوا ولم يعووا.

وعلي يمثل محتوى الرسالة، في تضحياته، وأخلاقه، وسلوكه، وشدّته في الله، انهّ التجسيد الحي لكل قيم الرسالة الجديدة، انّه الإيمان كلهّ وسوى ذلك فانهّ السيف الذي ارغم انوف قريش وغير قريش حتىّ أسلمت، ولو لا سيف علي لم تقم لهذا الدين

قائمة.

وانّهم ليعرفون انّ علياً هو الرجل الذي اعدّه الرسول ليقاتل على تأويل القرآن، كما قاتل على تنزيله.

والقتال على التأويل يعني القتال من أجل الحفاظ على المحتوى الحقيقي للإسلام، وأحباط كلّ محاولات التحريف والتزييف.

ثم علي هو مرجع الأمة عند الفتن، وانّه لعلى الحقّ أبداً ودائماً، كما ان الحق معّه. والمنافقون لا يريدون الحق ولا يأنسون به، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً.

هؤلاء، ذوو النفاق، المبثوثون بين المسلمين، من علم الرسول (ص) منهم ومن لم يعلم، حتّى ليحدثّ عنهم القرآن: {وَمِنْ اَهلِ المدْينَةِ مَرَدوا عَلىُ النفاقَ لا تعلَمهم نَحنَ نَعلَمهُمْ}.

هؤلاء جميعاً بكل قواهم وكل عددهم، وكل قابلياتهم على التخريب أين سيقفون؟

علي هو الرسالة وعلي هو الرسول، وهم أعداء الرسالة والرسول! فهم عليه، وهم جبهة وحدهم ضدّه، ولو كلفّهم سفك المهج! أمّا الأعراب:

من ارتدّ منهم عن الإسلام فقد ارتدَّ، ومن بقي على الإسلام كم هو إخلاصهم للإسلام، واستعدادهم للتضحية؟

وكم هو وعيهم لقضية علي؟

انّهم سمعوا مقالة رسول الله فيه، من شهد منهم غدير خم فقد شهد، ومن لم

يشهد فقد بلّغه الشاهدون مقالة الرسول: " من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللّهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه.. ".

انّهم من هذا يعرفون علياً، لكن لا يعرفون منه الا انّه رجل سابق إلى الإسلام، وقريب إلى الرسول، وقد استخلفه من بعده:

أمّا حقيقة هذا الإستخلاف؟ أمّا موقع علي من الرسالة الذي دعا الرسول (ص) لأن يستخلفه، ولأن يأمر الأمة بلزومه عند الفتن؟

أمّا المخاطر التي ستترتب على صرف الحكم عنه، واعطاء القيادة لغيره فتلك أمور لا يعرفها الأعراب!

وفي نظرهم إذا كان علي سابق إلى الإسلام، فأبوبكر من السابقين أيضاً، ثم هو شيخ من شيوخ قريش، وقد رضعته قريش نفسها، وجدير بعلي أن يتنازل له عن حقّه، ولا يحدث فتنة في الأرض وفساد كبير.

من المؤكد انّ الأعراب يفهمون قضية علي بهذه الطريقة، حقّ شخصي، ربما اندفع الرسول (ص) إليه بوحي من عاطفة، وودّ يكنهّ لعلي، ليس غير.

وإذا كانت المسألة تحتل هذا الموقع في أفكارهم وأنفسهم، فلا داعي حينئذ للحرص على خلافة علي، والتضحية من أجلها سوف لا تعني في نظرهم الاّ التضحية من أجل مصلحة شخصية يطمع فيها علي.

على انّ القوى الحاكمة .وهي قد سبقت إلى الحكم . ستوسم للناس صورة علي كما لو كان صاحب فتنة، وداع للشقاق، ومزّق لصف المسلمين، في يوم أحوج ما يكونوا فيه إلى الوحدة والوئام.

وهي صورة قريبة إلى الصدق جداً فيمن لا يعرف حقيقة الأمر، وهم لا يعرفون بالطبع كما شرحنا.

ولئن قنع الأعراب بهذه الصورة، أو لا فإنّهم سيقبلون الشك في علي وفي ثورة علي لا أقل، وحينما يأتي الشك لا يبقى أحد مستعدّ للتضحية.

والواقع انّ حكومة السقيفة جرّبت هذا السلاح، وأعطت للناس هذا المفهوم عن علي مقدمّاً.

لقد قال أبو عبيدة وهو يدعو علياً للبيعة:

"ولا تبعث الفتنة في أوان الفتنة، فقد عرفت ما في قلوب العرب وغيرهم عليك ".

وسواء صحّت الرواية عن أبي بكر انّه قال في علي خاطباً المهاجرين والأنصار: " حرب لكل فتنة، كأمّ طِحال أحب أهلُها إليها البغي " أو لم تصح، فإنّ هذا الأسلوب لم يكن بعيداً عن منطق الحكم القائم.

والأعراب المخلصون يعرفون حاجة الأمة إلى الوحدة أمام المخاطر التي تحف بها، وانّهم سيدعون لذلك بكلّ اخلاص، فهل تراهم سيشتركون مع الإمام في خوض حرب داخلية لا يعرفون أبعادها حقيقة.

على انّه ليس ببعيد انّ حدوث مثل هذا الشقاق سيدعو إلى مزيد من الإنفلات عن الإسلام، وارتداد الأعراب عنه.

وكان علي جيد الملاحظة لهذه النقطة بالذات، انّه يحدّثنا عن نفسه فيقول: " فأمسكت يدي حين رأيت راجعة الإسلام قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (ص) فخشيت ان لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم ".

على انّ القوى الحاكمة لا تعجز عن إقناع بعض القبائل بضرورة الاشتراك معها في القتال، وهي لا تمتنع أن تشتريها بالوعود.

وهذا أمر قد حدث بالفعل، فما ان أخذت البيعة لأبي بكر حتّى دخلت قبائل "أسلم" ومعها السلاح، ويومذاك قال عمر: " ما هو الاّ أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر ".

* * *

ولو تجاوزنا موقف قريش، والمنافقين، والأعراب، فما هو موقف الأنصار؟ معلوم انّهم كانوا يظهرون الميل لعلي، حتّى قال قائلهم: " لا نبايع الاّ علياً " لكن هل تراهم مستعدين لقتال؟

انّ علياً دعاهم أربعين ليلة، كان يصطحب الزهراء (ع) يطوف بها على بيوتهم واحداً واحداً، وهم يعتذرون إليه.

ألا " قد سبقت بيعتنا لهذا الرجل ".

ويقول له بشير بن سعد:

" لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار يا علي قبل بيعتهم لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان ولكنهم قد بايعوا!! ".

من بقي في جبهة علي؟

بقي الهاشميون، وبقي أنصار له من غير الهاشميين لا يتجاوزون العشرة، ولنا أن نشك حتّى في رؤية الهاشميين! في استعدادهم للتضحية، وقناعتهم بصحة الحرب.

ففي رواية الاحتجاج عن علي (ع) انّه قال:

" ولقدراودت في ذلك بقية أهل بيتي، فأبوا عليَّ اِلا ّالسكوت، لما علموا من وغرة صدور القوم ".

* * *

علي وحده إذن، ويده جذاء.

ولو وجد أربعين ذوي عزم لناهض القوم.

أما وهو لا يملك عشرة فالحرب بالنسبة له تعني التهوّر والتسرّع والانتحار. الانتحار لا بنفسه فقط، وانمّا بمصير الرسالة، وحياة الرسالة التي جعل أميناً عليها.

فأي معنىً بعد هذا يبقى لقول القائلين، كان عليه أن يتحرك، وأن يثور، وأن

ينهض، وأن يقدّم نفسه رخيصة للموت؟!

ولو قد فعل ذلك علي، لكان هو المسؤول قبل غيره عن مصير الرسالة! فهذا الطريق إذن هو الطريق المسدود، ولو سلكه علي لارتطم بالحجر، وانتهى.

الطريق الثاني: الاعتزال

أن يعتزل، ويبتعد عن الأمة، فلا يسمع لها صوت ولا يجيب لها نداء، أن يتنكر للأمة كما تنكّرت له ونست وصية رسول الله فيه. ويتركها غارقة في الجهل، والاختلاف، والحاجة.

كما اعتزل سعد بن عبادة، يوم رفض أن يبايع وأصرَّ على الرفض مؤثراً اعتزاله.

لكن ماذا يحقق هذا الموقف للرسالة؟

ماذا يحقق للإسلام عموماً، وللخطّ الشيعي بالخصوص؟

انّ الأهداف الرسالية هي التي تسيرّ علياً، وتملي عليه مواقفه، فهو حارس تلك الأهداف، وحامي حماها، فماذا تحقّق العزلة من تلك الأهداف؟

الحقيقة انّ الاعتزال يعني هنا التخلي عن المسؤولية، والتنكر للرسالة نفسها، والانسحاب عن موقع الأمانة والقيادة الذي أُريد لعلي.

انّ علياً ليس واحداً من الناس! بمستوى الناس، ووعي الناس، ودرجة اخلاص الناس يومذاك للرسالة.

ماذا علي؟

علي جيش في سبيل الله;

علي الإيمان كله;

علي باب مدينة علم الرسول، وأمين سرّه;

علي من لا يؤدي عن الرسول الاّ هو،

علي من لا ينبغي أن يذهب الرسول الاّ وهو خليفته،

وعلي مرجع الأمة، ومرجعها عند الإختلاف،

علي من النبي بمنزلة هارون من موسى،

وعلي نفس الرسول، دماً ولحماً، كل ذلك على لسان النبي نفسه.

ثم بعد رسول الله (ص) ماذا حقّق للرسالة رغم اقصاءه عن الحكم؟

أنقذ الأمّة من صدمة الانحراف، أعاد لها الثقة برسالتها، حصنَّها من التميع والتحلّل، رسم لها طريق الرسالة الصحيح.

هذا هو علي.

وهكذا كان أبوذر وهكذا كان عمار.

أبوذر أمّة وحده، يمشي وحده، يموت وحده، يبعث وحده، كما قال الرسول (ص). أبوذر أصدق الصادقين، ما أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر، كما قال رسول الله (ص) فيه. وأبوذر كان عظيماً بعد النبي (ص)، عظيماً في دوره وعطائه للرسالة، ويداً من أيادي علي (ع) في تحقيق أهداف الرسالة.

وعمار..

ما سلك وادياً الاّ سلك الحق معه.

وإذا حدثت الفتن فالزموا عمّار. هكذا قال الرسول (ص) فيه.

وكان مثل ذاك سلمان، والمقداد، وحذيفة.

فهل يعتزل كل هؤلاء؟

إذن من يغيث الأمة عندما تستغيث؟! ومن للرسالة يعزّز مفاهيمها، ويبني رجالها، ويدفع عنها الضياع والتمويه والتحريف.

ليس هنا الاّ علي، والاّ الطليعة الواعية التي دارت في فلك علي.

على انّ الاعتزال يقطع على هؤلاء طريق الوصول إلى الحكم.

وبدون التعامل الايجابي مع الأمة، ووضع الأرقام بيدها، ستضمحل صورة

علي، ولا تعرف الأمة فيه رجلا رسالياً قيادياً تستطيع أن تسلمّ إليه الزمام.

وحينما تعيش الأمة نظام الشورى يكون الطريق الطبيعي للوصول إلى الحكم هو تحصيل قناعة الأمة وثقتها من خلال الحضور عندها باستمرار، والوقوع في نظرها بمستوى المسؤولية.

وعلي (ع) يطلب الحكم، ويطلبه له كلّ أنصاره والسائرين في خطّه.

لأنّ موقع القيادة هو أفضل أداة لتحقيق الأهداف، والتوفرّ لإنجازها، ولأنّ موقع القيادة هو أخطر موقع في مصير الأمة

ومصير رسالتها.

والرسول (ص) حينما استخلف علياً كان يقصد أن يضع بيده هذه الأداة، والاّ فإنّ علياً موجود، وهو سيبذل طاقاته وامكانياته، ويقدّمها للأمة وللرسالة، بلا حاجة إلى استخلاف! بينما كان الرسول (ص) حريصاً، بل كان الوحي حريصاً على أن توضع القيادة بيد الإمام، وعلى أن يكون هو المشرف والموجّه والمخطط للتجربة الإسلامية بعد النبي (ص).

وكان الامام يحسب لهذا الهدف حسابه، ومن هنا فلا يجوز له أن يعتزل، وينقطع عن الأمة، لأن ذاك سيذهب بالحكم إلى غيره، ويخسر الإمام أفضل أداة لتطبيق الإسلام، وتنجيز طموحاته وأهدافه، في تربية الانسانية الخيّرة.

ومن هنا فهذا الطريق هو طريق مسدود أيضاً، بحساب الأهداف ومصالح الرسالة التي يفكّر فيها الخط الشيعي، ويحمل همومها.

كما انّ القوى الحاكمة سوف لا تتاح لهذا الموقف، وهي ترى فيه تحدياً لسلطانها، ومحفزاً للخروج عليها باستمرار. وبالتالي فهي لا تترك الإمام، وانّها لتأخذ منه البيعة كيفما كان.

ولقد رأينا كيف اضطربت القوى الحاكمة من الإعتزال المؤقت للإمام، وما استقرّ لها قرار حتّى أخذت منه البيعة مرغماً، وحتّى اضطرته لأن يشارك جماعتها.

انّ اغتيال سعد بن عبادة شاهد على ما قلناه...رغم انّ سعد ليس له من الخطر على الحكم القائم مثل ما للإمام وللخط الشيعي عموماً.

فالإمام إذن يعرّض نفسه للموت لو أراد أن يعتزل، لأن الشكوك ستحوط موقفه لا محاله، ويكون من الأفضل تصفية هذا الوجود الغامض الخطر. والجن الذي قتلوا سعد بن عبادة سيقتلون علياً بالطبع!!، لأنّه أخطر من سعد على النظام الحاكم.

الطريق الثالث: المجاملة

وهو أن لا ينهض علي ولا يعتزل، ثم هو في هذا الطريق يتجرّد من تصورّات الخط الشيعي.

تصوّر انّ علياً هو وحده القيمّ على الرسالة بعد الرسول، هو المؤدي عن الرسول، وهو المبين للأمة ما تختلف فيه، وكلمته هي كلمة القرآن، والسنّة لا يعدل بها ما سواها.

وتصور انّ الحكم القائم لا يملك سنداً شرعياً، كما لا يملك الحق في التعبير عن الإسلام طالما لم يكن مستوعبا لكُل حقائق وتفاصيل الشريعة، ولا مستوحياً كلّ مفاهيمها وقيمها.

علي في هذا الطرق يتجرّد عن هذه التصورّات، ويعبر كل الحدود الفاصلة بينه وبين الخلافة الحاكمة.

ثمَّ يعيش في الأمة كما يعيش أي واحد من الصحابة.

فلا هو يطمح في الحكم ويعمل له معارضاً حكومة الخلفاء.

ولا هو يبني القواعد الشيعية، يعزز خطّها وطريقتها في فهم الإسلام. وهذا الطريق هو الذي سلكه معظم الصحابة المؤمنين

بالنصّ على الامام.

فقد تعاملوا مع الحكم القائم، متجاوزين قضية النص، ومعترفين الحكم القائم

كما لو كان حكماً شرعياً جاء بنص الرسول، أو اجماع الأمة ان كان الأمر للأمة الأنصار الذين قالوا: " لا نبايع الا ّعليا " ماذا صنعوا؟

وخالد بن سعيد الأموي الذي دعا لعلي، واستنهضه أوّل الأمر، ورفض العمل لأبي بكر، ماذا صنع؟

بل وحتّى بعض رجالات البيت الهاشمي ماذا صنعوا؟

هؤلاء جميعاً حينما وجدوا علياً قد خسر المعركة، واستقرّ الحكم لغيره، تركوا العمل في داخل الخط، وتركوا عليا بًالذات، وتعاملوا مع الحكم كما يتعامل غيرهم ممن لم يؤمن بعلي، ولم يدع له أ لا.

وعلي أمامه هذا الطريق.

يتعامل مع الحكم القائم، ثم لا يحدّث نفسه بحديث النص عليه، وقيمومته الشرعية على الرسالة.

يندك مع حكومة الخلفاء، وينصهر فيها.

يتنازل عن حقّه عملياً ونظرياً.

يعيش في الأمة كما يعيش أي واحد من الصحابة.

وفي هذا الطريق لا تضيع قابليات علي، ولا تحرم الأمة وجوده.

لكنّه في هذا الطريق لا يدعو لنفسه، كما لا يسعى في بناء قواعد الخط الشيعي الذي أُعطي َحق ّالتعبير عن الإسلام. لأنه قد تنازل عن هذه التصوّرات.

ولقد كان عمر يريد من علي هذا الموقف.

كان يقول لابن عباس:

" يا عبد الله عليك دماء البُدن إن كتمتنيها، هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟

قال: قلت: نعم "[1].

لكن علياً لم يسلك هذا الطريق، ولم يسلكه أحد من شيعته.

لماذا؟ لأنّ تنازله عن تصوّراته خيانة وتهرّب، ولجوء إلى العافية.

انّه مسؤول عن تعريف الأمة بحقيقة الحكم القائم، وموقعه من الرسالة، من أجل أن لا تضيع الرسالة، ولا تتلاعب بها الأيدي والأهواء.

وانّه مسؤول عن تحصين الخطّ الذي يملك هذا الوعي، ويعرف هذه الحقيقة، ثم ّان السعي من أجل الحكم ضرورة، وهو

دليل صدقه معرأيه.

والأطروحة الشيعية للإسلام لابدّ أن تكون هي الحاكمة، لأنّها هي الأطروحة الصحيحة، النقية، الشاملة.

الطريق الرابع: التعايش السياسي

ومن هنا فلم يبق مفتوحاً الاّ هذا الطريق.

هو لا يستطيع أن ينهض، أو يعتزل، أو يتنازل، لأن أهدافه لا تقبل ذلك، إذن ماذا عليه؟

عليه أن يستجيب لنداء الأمة، ويتوفر لحاجاتها.

وعليه أن يبايع ويتصادق مع الحكم القائم، لأنّه لا يستطيع أن يخدم الرسالة الاّ عن هذا الطريق.

لكن على أن لا يتنازل،ولا يبيع تصوّراتهولا يتنكّر لها عملياً.

انّه يجب أن يوضح للناس انهّ وحده القيمّ على الرسالة، ويؤكد لهم هذا المفهوم. ويجب أن يتخذّ طريقه إلى الحكم، مادام يرى انّه وحده الذي يملك

1- المراجعات: 292.

مؤهلات الحكم، كما أراده الرسول والقرآن، لا كما يريده الحاكمون. وفي فصل سابق درسنا نشاطات علي في بناء القاعدة الشيعية.

أمّا الجانب السياسي من نشاطه في هذه المرحلة فهو ما نتوفرّ له الآن.

على العموم كان الإمام مؤمناً بضرورة تسلمّ الحكم،واقصاء القيادات غير الكفوءة، ولقد سعى في هذا السبيل حتىّ قيل:

" إنّك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص ".

فأجاب: " بل أنتم والله لأحرص،وإنّما طلبت حقاً لّي،وأنتم تحولون بيني وبينه "[1].

ولقد كان واضحاً لعموم المسلمين، وللخلفاء أنفسهم، انّ علياً غير متنازل عن حقه،ولا ساكن عن بيانه.

وعلى العموم كان الخطّ الشيعي يطمح إلى الحكم، ويستفيد من الفرص.

مناهج العمل:

أمّا مناهج العمل:

ففي البداية كانت هناك محاولة لتقويض نظام الحكم، اشترك فيها بشكل وآخر كل من علي والزهراء والمخلصين للخطّ الشيعي.

ولا تتّخذ هذه المحاولة أسلوب العمل المسلحّ، فقد كان واضحا لّقوى التشيعّ انهاّ غير قادرة على التدخل بهذه الطريقة، غير انّ ذلك لم يمنع من محاولة جريئة بصيغة قلب القواعد الشعبيّة نفسها على الحكم القائم،واقناعها بضرورة نفض اليد من

الاعتراف به.

ولقد كان ذلك هو الطريق الوحيد الذي تستطيع قوى التشيع أن تسلكه.

فعبر دراسة تحليلة للوضع القائم يومذاك، يتّضح انّ الرصيد الشعبي الذي ظفرت به خلافة السقيفة لم يكن معتمداً على أسس رصينة، ووضوح تام للموقف،

1- نهج البلاغة، 2 / 103، الخطبة 167.

انّما القصور في الوعي السياسي، والوعي الديني، لدى المسلمين، وروح المباداة، وطريقة الغطرسة والإرهاب من جانب القوى الحاكمة، كان هو المساعد جداً على نجاح محاولة استلاب الحكم من علي.

المسلمون جميعاً لا يشكّون في علي.

والمسلمون جميعاً مهاجرون وأنصار وأعراب وقريش سمعوا مقالة رسول الله في علي ووعوها، وانهّم ليعلمون حق العلم انّ الأمر إليه وحده. لا لوصية الرسول فحسب، وانّما لموقع علي من الرسالة، ماضيه المجيد، استيعابه التام، اخلاصه الفذ، تفانيه المنقطع النظير، تجسيده لمفاهيم وقيم الرسالة. حتّى لقد كانوا ينظرون إليه على عهد رسول الله كما ينظر إلى النجم، وحتّى كانوا يقولون إذا جاء علي جاء خير البرية.

لكنّهم في ذات الوقت لا يدركون البُعد الحقيقي لاقصاء علي عن الحكم، وبدت لهم القضية كما لو كانت تبديل أشخاص.

وحينما تبدو القضية بهذا المستوى فلا داعي للحرص والتكلّف والحدية، ومن الأفضل اقرار الحكم البديل من أجل الحفاظ على وحدة الصفّ الإسلامي.

ولا حاجة في طرح وصية الرسول والخروج عليها، طالما لم يكن في الخروج عليها مفسدة للرسالة.

كما انّ العمل السريع الذكي، وحسم الأمور بسرعة ولباقة، والتحدّث من منطق القوة، وأسلوب الضغط والتهديد والتخويف، زائداً على التشكل بصيغ شرعية، واتهّام أية حركة مضادة بالإساءة للأمة والرسالة، كل ذلك مما اتخذته القوى الحاكمة ساعد على تحصيل قناعة اكثر المسلمين بالحكم القائم تسليماً للأمر الواقع، وتنويب حماسهم لقضية علي.

أُنظروا...

ما وجدوا شخصاً الاّ خبطوه، خطبة أبي بكر في الجامع، تهديده علياً

والأنصار واتّهامه لعلي بالفتنة.

وحينما تصاب العقول بالشك، وتموت الإرادة، وينوب الحماس، لا ينفع العمل المسلح، بل لا يمكن. لأن أحداً سوف لا يتحرّك للتأييد فضلا عن الاشتراك والجماهير التي اندفعت لبيعة أبي بكر كانت مصابة بالشك، والإنهيار، والقلق.

وهنا سوف لا تنجح أية صيغة للعمل إن لم تعالج هذه الإصابة، وتمسح الأفكار، والتصوّرات، والنفسيّات المريضة، مستبد

له بوضوح تام، وتصور عميق، وإرادة حيّة صلبة غير متخاذلة.

ولابدّ من تحقيق كلّ هذا بسرعة، وحرارة، وتكثيف الجهود والطاقات والمساعي قبل أن تستحكم الإصابة، وينقطع النفس الأخير للإرادة وللوعي معاً.

ولأن القوى الحاكمة تتحرك بسرعة، وتبادر لخنق أية محاولة وهي في المهد، وهنا جاء دور علي والزهراء والمخلصون للخط.

جاء دورهم بغاية تعرية الحكم القائم، وتحذير الأمة من مخاطره على التجربة وعلى الرسالة.

وبغاية تحريك عزمهم، وتثوير إرادتهم، وشحنهم بالحرارة والحماس للقضية، بعد توعيتهم وتعريفهم بأبعادها الرساليّة.

وبغاية فصل هؤلاء عن الحكم القائم، وسلب تأييدهم له، ومن ثمّ الإنخراط في سلك علي.

تحركت الزهراء، ومعها لفيف من نساء قومها، لا تخرم مشيتها مشية رسول الله. ذكّرتهم بأبيها، وموقعها من أبيها، وأنّت أنَّة أجهش لها القوم بالبكاء، ملكت العواطف والأسماع والعقول، بكلّ قوةّ وكل حرارة، وكل حماس.

وبكل دقة، وتركيز، واستهداف. ذكّرتهم بماضيهم البطولي المجيد،

بتضحياتهم العميقة العريقة.

ذكّرتهم بالشهامة والاباء والإخلاص للرسالة.

وأعادت لصفحة فكرهم علياً، موقعه من الرسالة، وموقعه من الرسول، وموقعه من الأمة كلها.

وانحدرت تشرح لهم واقع ما جرى الآن، خطره على الرسالة، وبُعدهُ عن الرسالة.

حذّرتهم عن السكوت، والإقرار، والتخاذل.

صوّرت لهم مستقبل التجربة في ظلّ هذا الواقع.

" أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاءه إلى الأمم، زعيم حقّ فيكم، وعهد قدّمه اليكم، وبقية استخلفها عليكم... ".

" أيّها الناس اعلموا..

انّي فاطمة، وأبي محمد، أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم... ".

" يا معشر النقيبة، وأعضاد الله، وحضنة الإسلام، ما هذه الغمزة في حقّي، والسنة عن ظلامتي، أما كان رسول الله (ص) أبي يقول: " المرء يحفظ في ولده " سرعان ما أحدثتم.. ".

" هذا والعهد قريب، والكلم رهيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يقبُر، ابتدارا زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا،

وانّ جهنّم لمحيطة بالكافرين ".

" فهيهات منكم، وكيف بكم، وانّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، واحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، وقد

خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلا... ".

ثم تخاطب المشاعر والعواطف والقلوب،

تحيي جذوة الحماس، وتثير بقية البطولة،

" إيه بني قيله... أهضم تراث أبي؟

وأنتم بمرئىً مني ومسمع، ومنتدى ومجمع؟

تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذو العدد والعدّة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجُنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون؟

وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت... ".

خطبة كأنها النار، أو كأنّها العاصفة;

كلّ كلمة فيها ثورة، وكل حرف فيها رصاصة.

عصفت بهؤلاء فكأنما أيقظتهم من غفلة، ودقت في أسماعهم وعقولهم الطبول.

" أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتبعّ، أمنَّ لا يهدي الا أنّ يهدى فما لكم كيف تحكمون "؟ واهتز لهاّ الحاضرون، فكأنما فكَّتهم من عقال، وأزاحت من فوق صدورهم صخور الجبال، وكاد أن يحدث كل شيء.

كاد أن تكون ثورة، ترفع وتضع، وتقلب التاريخ.

وشعرت بهذا قوى الحكم، فاستدرك (أبوبكر)، واستعمل كثيراً من الحذق والسياسة، فجاء يصب الماء على النيران الهائجة، ويهدء هذا الزلزال العنيف.

ثم جاء علي.. وانّ السيف يعلوه وهو مكبّل.

ولو كان يريد الموت ساعته لقال كل شيء، لكنه سيقتل ثم تضيع الحقيقة،

وتضيع الرسالة.

أمّا هو فيريد أن يبقى، لأن الرسالة تريد منه البقاء، مهما كلفّ الأمر، ومهما أعطى من التنازلات.

وكان رسول الله (ص) يحدّثه بما يجري عليه، ويأمره بالصبر.

" يا علي انّ الأمة ستغدر بك ولكن علياً لابدّ أن يقول الكلمة.

والكلمة هنا أقسى من السيف، لأنها ستبقى للتاريخ، وستغيّر مجرى التاريخ. وانّ عليه أن يحاول ثم لا يهمّه أن تحبط مساعيه.

لقد خطب المهاجرين:

" يا معشر المهاجرين: الله، الله، لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه.

فو الله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحقّ بهذا الأمر منكم، ما كان منا القارئ لكتاب الله، الفقيه لدين الله، العالم بالسنّة، المضطلع بأمر الرعية، والله انه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعداً ".

لكن هذا الخطاب الاستنهاضي من الإمام علي (ع) لم يترك بدون تصد وتحد من الحزب الحاكم.

فقد قال له أبو عبيدة:

" يا أبا الحسن، انّك حدث السن، وهؤلاء مشيخة قريش قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبابكر الاّ أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالا له واضطلاعاً به، فسلمّ له الأمر، وارض به فانك أن تعش ويطل عمرك، فأنت لهذا الأمر لخليق، وعليه حقيق في فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك ".

قول يهدئ فيه مشاعر الناس، ويمسكها من الإنفلات. أمّا أبوبكر فقد بدأ شديداً، لأنه لابدّ من شدة كما لابدّ من لين.

قال: " أيّها الناس ما هذه العجلة إلى كلّ قالة؟ لئن كانت هذه الأماني في عهد رسول الله (ص) الا من سمع فليقل، ومن شهد فليتكلم ".

لكنه استرسل في القول:

إنّما هو ثعالة شهيد ذنبه . يعرّض بعلي . مرب لكل فتنة، كأم طحال أحب أهلها إليها البغي.

ألا انّي لو أشاء أن أقول لقلت، ولو قلت لبحت، انّي ساكت ما تركت.

ثم التفت إلى الأنصار، وهم ذوو ميل في علي، فقال:

" قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم، وأحقّ من لزم عهد رسول الله (ص) أنتم فقد جاءكم فآويتم ونصرتم.

ألا انّي لست باسطاً يداوًلا لسانا عًلى من لم يستحق ".

وأخمدت النار مرّة أخرى.

أمّا المخلصون لعلي، والمؤمنون بخطّه، فنستمع للواء بن عازب يحدثنا عنهم، حيث يقول في رواية ابن أبي الحديد:

" لم أزل لبني هاشم محباً فلما قبض رسول الله (ص) تخوفت أن يتمالا قريش على اخراج هذا الأمر عن بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الوالهة العجول.. ".

إلى أن يقول:

" فلمّا كان بليل خرجت إلى المسجد...

فخرجت إلى الفضاء، فضاء بني بياضة، وأجد نفراً يتناجون فلما دنوت منهم سكتوا فانصرفت عنهم فعرفوني وما أعرفهم فدعوني اليهم فأتيتهم فأجد المقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، وأباذر، وحذيفة، وأبا الهيثم بن التيهان.

وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين ".

قوى الحكم تعزل التشيّع:

كان من نتيجة المحاولات السابقة أن شعرت قوى الحكم بخطر الوجود الشيعي الموالي لعلي.

ورغم انّ تلك المحاولات لم تنجح في استرداد السلطة، الاّ أنهّا وضعت القوى الحاكمة موضع التحسب لها باستمرار، ونبّهتها على خطر الوجود الشيعي، وضرورة الإحتياط منه.

انّ هذا الشعور هو الذي دعا القيادة الحاكمة إلى عزل الوجود الشيعي عن الأمة قدر الإمكان، ومحاولة تفتيته وحلّه باستمرار.

وفي هذا الصدد يذكر المؤرخون انّ الخليفة ومعه جماعة ذهب إلى العباس . بعد أن أشير عليه بذلك . فقال بعد حديث له:

" ولقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً، يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك، إذ كنت عمّ رسول الله "[1].

وكانت هذه محاولة لفصل العباس عن الخط الشيعي، والحجز بينه وبين علي.

وقد لاحظ ذلك الأستاذ العقاد فقال في كتابه "عبقرية الصديق"[2].

وفي البداية كان أبو سفيان قد دعا لعلي وعرض عليه البيعة.

ورغم انّ أكثر الباحثين يشكّون في نوايا أبي سفيان في هذا الاقتراح.

ألا انّ بعض الكتاّب فهم موقف أبي سفيان باعتباره عصبية لبيت (عبد مناف) الذي يلتقي عنده بنو هاشم وبنو أمية.

1- ابن سبأ: 63 ـ 64.

2- أُنظر الصفحة: 39.

ومهما يكن في شأن هذا الموقف، فانّ القوى الحاكمة بادرت للتغلّب عليه، وجرّ أبي سفيان إلى صفوفها.

ولقد أشار عمر على الخليفة الأول أن يعفي أبا سفيان من كان بيده من الصدقة، ففعل، فرضي أبو سفيان، وانحاز إلى الحزب الحاكم.

وواصلت قوى الحكم عزلها للوجود الشيعي، وتقليص نفوذه في الأمة، لأنّ هذا الوجود ليس هيناً، صغيراً، حقيراً.

انّه يملك أفضل موقع، وأنصع صورة، في نظر الناس.

كما انّه يملك الحقّ، والصدق، والشوعيّة.

وممثلوه يملكون الإخلاص، والبطولة، والصلابة.

وانّ أي تحرّك من هؤلاء قد يؤدّي بالحكم القائم.

ومن هنا لابدّ من عزل هذا الوجود، وتصغيره للناس، وسلب امكانياته على التحرك، ولقد نجحت الخلافة الحاكمة في عزل الخط الشيعي عن مواقع المسؤولية.

فلقد سمعنا عن قيادات أبي عبيدة الجراح، وخالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وتولّيهم لمواقع عسكريّة وسياسية ولكننا لم نسمع عن قيادة لعلي بن أبي طالب أيام الخلافة الحاكمة في جيش أو ولاية.

ولقد كان من السهل تفسير هذا لو انّ علياً لم يكن محارباً من الطراز الأول...

كان هناك إذن تجنب لعلي وحزب علي في ميادين القتال.

كما كان هناك أيضاً تجنب لهم في تولية المناصب "[1].

حتّى انّ معاوية سجّل هذه الحقيقة في كتابه لـ (محمد بن أبي بكر)، فقد قال

1- اليمين واليسار: 75 ـ 76.

فيه: " ثم انّه . علياً . بايع لهما وسلّم لهما، وأقاما لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضهما الله..."[1].

وفي رواية الطبري وابن عساكر:

انّ أبابكر بعث الجنود إلى الشام، واستعمل فيها خالد بن سعيد، فأخذ عمر يقول: أتؤمره وقد صنع ما صنع، وقال ما قال: فلم يزل بأبي بكر حتّى عزله، وأمر يزيد ابن ابي سفيان "[2].

وخالد بن سعيد هو الذي دعا لعلي، واستنهضه، ورفض العمل لأبي بكر وانّ عمراً يذكر له تلك المواقف، ويحسب لها كل حساب، فلم يزل بأبي بكر حتّى عزله!

رغم انّ خالداً كان أموياً، وانسحب عن علي فيما بعد.

لكن حيطة القوى الحاكمة كانت كبيرة.

حتّى انّ أدنى الاحتمالات يكفي لاتخّاذ موقف صارم، كالذي وقفه عمر من خالد بن سعيد.

ولقد مضى منّا القول انّ قوى الحكم رفضت حتىّ قرآن علي يوم جمعه وقدمّه فقالوا: " لا حاجة لنا في قرآنك ".

والرواية السنيّة وإن لم تذكر هذا النصّ، الا أنّ قضية جمع علي للقرآن مروية في المصادر السنية ولا يوجد أي شك في أن الخلافة الحاكمة لم تعتمد هذا الجمع.

بل انّ قوى الحكم لم ترفض جمع علي للقرآن، وانمّا لم تشركه في مهمة

1- ابن سبأ: 85، نقلا عن المسعودي، مروج الذهب، 2 / 60.

2- ابن سبأ: 86 عن الطوي وابن عساكر.

الجمع التي تصدّت لها هي، ولو لم يكن علياً أعلم الناس بالقرآن، أو من أعلمهم . لا أقل . لأمكن تفسير هذا الموقف بسهولة.

أمّا وهو يعلم كل آية متى نزلت، وأين نزلت، وفيم نزلت، فإن عدم اعتماده في العمليّة لا يمكن تفسيره الا ّبعض الأبعاد السياسيّة.

وزيادة على ذلك فإنّ أبابكر أسقط سهم ذوي القربى من الخمس، وهو ثابت لهم بنصّ القرآن، كما منع فاطمة الزهراء فدكا، وقد كان غلتها من أبيها.

وليس لهذين الموقفين أي تفسير سوى البُعد السياسي.

فليس من صالح الحكم من وجهة نظر سياسية أن توضع ثروات طائلة بيد علي، وتحت سلطانه، مادام علي (ع) يقود أكبر حركة مضادّة.

إنّ سهم ذوي القربى سيكون من نصيب علي، كما انّ فدكا ًستصبح بيد علي (ع).

ولو كان لهذين الموقفين تحليلا دينياً، لما وجدنا الخليفة الثاني، يرجع فدكا ً للزهراء، ولعلي سهم ذوي القربى لأهله، وهو الذي كان يقول: " انّي لأستحي الله أن أخالف أبابكر ".

غير انّ استتوار الحكم للخليفة الثاني، واستتباب الأمن له، زائداً على العلاقة الايجابية بينه وبين علي بالذات، دعته لإرجاع تلك الحقوق دون قلق.

المنهاج الجديد:

وفي ظل هذا الواقع، وبعد أن أصبح متعذراً استرداد الحكم، كان لابد من ايديولوجية جديدة في العمل من أجل أن لا تضيع كل الأهداف، ومن أجل أن تضمن الحياة للرسالة المهدّدة. ومن ذاك كانت الخطة الجديدة تقتضي قدراً أكبر من الانفتاح، والتعامل مع قوى الحكم بروحيّة أكثر مرونة، لا على حساب الأهداف، وانمّا في صالح الأهداف، وحيث تسوغ الأهداف.

وعلى ذلك فقد بايع علي، وبايع الخط الشيعي كله، يوم أصبحت القناعة كافية بأن الاستمرار على الرفض يهدّد مصير الخط، زيادة على انّه يعوقه عن تسجيل أي موقف ايجابي للرسالة.

وفيما يتعلق بهدف الوصول إلى الحكم كان الانفتاح ضرورياً أيضاً.

لأن القوى الحاكمة أصبحت تملك الحاضر والمستقبل، وانها لقادرة على قطع الطريق أمام الخط الشيعي.

انّ مفاتيح الحكم ليست بيد الأمة، انّ القوى الحاكمة سيطرت حتىّ على ذلك، وأصبح شأنا مًن شؤونها، وواحدا مًن صلاحياتها.

وبجرّة قلم تستطيع أن تصرف الحكم عن الخطّ الشيعي كما صنع الخليفة الأول، وانهّ ليستطيع بمثل ذلك أن يضع الحكم

لمن يحذر.

وأحد لا يستطيع أن يعارض، ويشجب، ويرفض، والاّ فانّه صاحب فتنة، وداع إلى شق وحدة المسلمين، وما أسوع أن تشمله عملية التطهير!!

والخليفة بعد ذاك هو إمام المؤمنين وأمورهم وخليفة رسول الله (ص)، وقد بايعوه على الطاعة، فكيف يرفضون رأيه؟ وعقلية الشورى لم تجد لها نصيراً.

كما انّ طريقة الشورى لم تعرف لنفسها مصداقاً منذ مات رسول الله (ص).

حتّى انّ أبابكر حين استخلف عمر، حاول بعض المسلمين أن يعترض أو يسأل عن سبب هذا الإختيار، فلم يسمع له أبو بكر بذلك.

وأنا لا أدري ماذا كان يقصد طه حسين يوم قال:

" لم يكن استخلاف أبي بكر لعمر إلاّ ترشيحاً له "[1].

وهل أعطي أحد من الأمة حقّ الرأي، والاعتراض، والاختيار؟

1- الشيخان: 48.

والخلاصة انّ عواطف الخليفة أصبحت هي الطريق الطبيعي والوحيد للوصول إلى الحكم. وبهذا وصل عمر، ووصل عثمان.

ومن هنا كان الخط الشيعي واقعاً في حراجة بالغة، هي أشبه بمأزق. فمن ناحية لابد من الاستجابة لنداء الامة.

ومن ناحية لابد من التعاطف مع الحكم.

ومن ناحية ثالثة لابد من الوقوف بوجه الحكم أيضاً، للحدّ من تعدياته وهذا هو المأزق.

وعلى أي حال، فاستجابة لمجموع هذه الملاحظات، كانت الضرورة تحكم الخط الشيعي بأن يلتزم سياسية الانفتاح.

طبيعة الانفتاح:

لكن طبيعة هذا الانفتاح وحدوده تخضع للأهداف، وللرسالة، وللشريعة: فهو انفتاح يحمل معنى التعاون، والارشاد، والتوجيه، كما يحمل معنى الضغط، والتصحيح، بالحجم المناسب.

انفتاح مرادف لكلمة التقويم، بأي اسلوب كان التقويم، وأمكن التقويم.

حتّى كان علي هو القائل " نقوّمك بسيوفنا " يوم سأل الخليفة: " ماذا كنتم صانعين، لو صرفناكم مما تعرفون إلى ما تنكرون ". وفي الوقت نفسه كان هو القائل يوم أتاه عمر يسأله عن مسألة: " لو دعوتني لأتيتك " هذه الطبيعة هي التي فرضها الوضع السياسي والديني في المرحلة الراهنة، ولقد بدأت القوى الحاكمة تطمئن شيئاً فشيئاً للخط الشيعي، وتتعامل معه بانفتاح مماثل.

لأنها بحاجة إليه من ناحية،ولأنه يملك رصيداً شعبياً كبواً،ولو على مستوى التأييد.

وطبيعي أن يمرّ هذه الانفتاح بوضع تدريجي، حتّى شهدت أيام أبي بكر

بداياته الخفيفة. لكنها تعتبر بداية الطريق المبارك بالنسبة للتشيع الذي كان مهدّداً،ومحظوراً،ومطلوبا لَه الفناء.

وفي عهد عمر بلغت العلاقة بين الخليفة والخط الشيعي مستوى القمة، حتّى كان علياً هو المستشار الأول للخليفة،واستطاع أن يفوض نفسه فوضاً، ويضع الخليفة نفسه تحت شعاعه، حتّى كان يقوم ويقعد بمدح علي،والاطراء عليه،وصعد نجم علي. واتضح للأمة دوره الخطير.

وسجّل للمسلمين عمق وجوده الرسالي، فهو الأمين على الرسالة،وهو الحصن الذي يفزعون إليه.

وكان شخص علي في كل نائبة، وفي كل معضلة.

فلا داعي للقلق،ولا داعي للطيرة وعلي (ع) في الوجود.

شاهدوا مصداق أقوال الرسول (ص)، حينما حدثهم كثيراً عن علي،وأكّد لهم انهّ الوحيد لهذه الرسالة، ولهذه الأمة.

ولا نرجع هنا للحديث عن عطاء علي، إنّما نريد الجانب السياسي.

وكان ابن عباس مستشاراً لعمر.

وكان عمار والياً لعمر.

وكان سلمان والياً لعمر.

وكان حذيفة والياً لعمر، يسأله عن المنافقين، ويسأله عن نفسه، فيما إذا كان يعرف فيه شيئاً من النفاق أولا، ويقول له: " أنت أخي وأنا أخوك ".

وفي الصف الأول وقف علي وشيعة علي.

حتّى انّ عمر ليدافع عنه أحيانا.ً

وفي رواية أخرى:

" جاء أعرابيان يختصمان فقال عمر: يا أبا الحسن اقض بينهما، فقضى علي

على أحدهما فقال المقضي عليه: يا أمير المؤمنين بهذا يقضى بيننا؟

فوثب إليه عمر فأخذ بتلابيبه ثم قال:

ويحك ما تدري من هذا. هذا مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن "[1].

في مرّة وقع رجل في علي بن ابن طالب بمحضر من عمر فقال له عمر: " أتعرف صاحب هذا القبر؟ هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لا تذكر علياً الاّ بخير فانك إن تنقصه آذيت صاحب هذا القبر "[2].

ومن يلاحظ الوضع السياسي للتشيع بمثل هذا الوقت يعرف كم كانت سياسية الإمامرائعة، وكم حققت للخطّ الشيعي، وللإسلام عموماً من خدمة.

إنّ علياً هذا هو نفس علي الذي كان مهدداً بالقتل يوم امتنع عن البيعة. وهو نفسه الذي قال لعمر: " اطلب حلبا لك شطره ".

وهو نفسه الذي أرادت حكومة أبي بكر عزله عن الأمة، وإطفاء نوره، والشيعة اليوم هم اولئك الشيعة الذين عملت حكومة أبي بكر على تنحيتهم وتخلية الساحة منهم.

لكن الايديولوجية الجديدة التي اتبعها الخطّ هي التي ضمنت له وجوده، ووفرّت له الاتصال بالأمة، والتسلق إلى الحكم، حتّى كان عمراً عازماً على تولية الإمام علي (ع) كما أظهر ذلك.

ولقد كان عازماً على أن يستخلفه بعده.

انظروا: كل الجذور النفسية كسرّها علي، وكل دواعي الانفصام تجاوزها

1- مناقب الخوارزمي: 98.

2- فضائل الخمسة: 227 نقلا عن مصادر أخرى.

علي، واقترب من الحكم، حتّى كان الخليفة يريد توليته، فقد قال ذات مرّة:

" لقد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أولي رجلا أموركم، أرجو أن يحملكم على الحقّ وأشار إلى علي "[1].

وفي مرّة أخرى قال لرجل انصاري: من ترى الناس يقولون يكون الخليفة بعدي؟ فعدَّد الأنصاري رجالا من المهاجرين ولم يسمّ علياً، فقال عمر: فما لهم عن أبي الحسن؟ فو الله انهّ لا جرم ان كان عليهم أن يقيمهم على طريقه من الحق "[2] وفي رواية أخرى انّ عمر سأل يوماً:

" من تستخلفون بعدي؟

فقال رجل من القوم: نستخلف علياً.

قال: انكم لعمري لا تستخلفونه، والذي نفسه بيده لو استخلفتموه لأقامكم على الحق وإن كرهتم ".

التحرّك الشيعي:

وفي ظل هذا الجو تحرّك الشيعة سراً وجهراً، تغلغلوا في الأمة، فتحوا الأبصار، وأزالوا الحجب.

وفي الخفاء وفي الجهر كانت دعوتهم لعلي مستمرّة. ربط الأمة به، وتعريفها بوجوده وموقعه، حتّى ورد في الرواية:

" بينا عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول: قال رسول الله.. إذ أقبل

1- ابن سبأ: 145.

2- فضائل الخمسة: 2 / 111.

رجل معتم فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله (ص) الاّ قال الرجل: قال رسول الله.

فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟

فكشف العمامة عن وجهه وقال:

أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة، أبوذر الغفاري، سمعت رسول الله (ص) بهاتين والاّ صمتا، ورأيته بهاتين والاّ عميتا، يقول:

علي قائد البررة، قاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله "[1].

وهكذا.. ابتداءً وبدون سؤال يذكّر الناس بعلي، ويضع أمامهم الأرقام، فما ترى موقفه لو سئل عن علي، أو انجرّ الحديث إليه؟

وذات مرّة كان سلمان خارجاً مع المسلمين في غزو (بلنجر)، قال لأصحابه:

" أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟

فقالوا: نعم.

فقال:

إذا أدركتم شباب آل محمد (ص) فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم، فأما أنا فانيّ أستودعكم الله... "[2].

ولقد نستطيع القول انّ نسبة كبيرة جداً من مناقب علي، وتصريحات الرسول فيه، وصلتنا عن طريق هؤلاء، يوم كانوا يعملون جادين في الدعوة إليه.

1- فضائل الخمسة: 2.

2 – سلمان الفارسي: 51.

ولا يكاد المسلمون يواجهون مشكلة الاّ وكان وأحداً من هؤلاء الشيعة يذكّرهم بعلي، ثم ينهض ويدعو علياً.

وربما كان عملهم في السرّ أكثر منه في العلن، فقد لاحظ المستشرق (ماسينون) انّ سلمان الفارسي عقد حلفاً مع بني عبد قيس، واستطاع أن يضمّهم وحلفاءهم من الحمراء . الجنود الفرس السابقين . إلى آرائه الخاصة بأحقيّة علي "[1].

وهذا هو التفسير الوحيد لعزل عمر اياّه، والمعروف انّه بلغته عنه وشاية، دون أن يذكر المؤرخون محتواها، لكن الشيء المؤكد انّ الوشاية كانت تتصل برأي سلمان في علي، ودعوته إليه.

وعمّار هو الآخر كان والياً لعمر على الكوفة، ثم عزله عمر لوشاية بلغته فيه. وهنا أيضاً لم يذكر المؤرخون هوية تلك الوشاية، لكن شيئاً غير الدعوة لعلي لا يمكن أن يفسرّ لنا تلك الوشاية، فمثل عمارّ لا يظُن بهُ ما يدعو المسلمين للوشاية به

عند عمر، وعمّار هو من نعوف.

وكان الزبير هو القائل:

" لو قد مات عمر بايعنا علياً ".

توجّس الخليفة:

ومهما كانت درجة انفتاح الخليفة على الخط، فانّه غير مستعد لقبول تحرك كاسح من هذا القبيل.

وحتّى لو كان يريد تولية علي بعده، فانّه غير مستعد لأن يفعل ذلك بضغط الشيعة، وبفوض منهم، عن طريق لف الأمة بعلي، وتوجيهها إليه، وإرغام الخليفة

1- شخصيات قلقة: 29.

على النزول عندرغبة الأمة.

كما انّه لا يوجد أي دليل على انّ الحركة إذا وجدت المجال مفتوحاً ستدعو لنفسها، واسترداد الحكم من عمر.

كانت هاتان مشكلتان، تدعوان الخليفة إلى التوجس وإعادة النظر.

فالزحف الشيعي العنيف قد يبلغ إلى درجة يضطر عمر عندها لتولية علي بعده، وانّه يريد أن لا يلزم نفسه بشيء من هذا القبيل.

ولقد وقعت هذه الملاحظة في نظر عمر نفسه، حتّى انّه يوم نقلت له مقالة الزبير: "والله لو قد مات عمر بايعنا عليا " بدت عليه آثار الوغ والقلق، حتّى لقد أراد أن يقول كلمته أمام الجميع، وبسرعة ودون تأخير، لكن عبد الرحمن هدأ منه.

تحرّك القوى الانتهازية:

وحينما جدّ الشيعة في العمل بدأ خصوم الخط بالاندحار.

وكلّما تسلّق علي درجة، هبط خصومه الحقيقيون درجة، ووضحت عندهم الحقيقة.

انّ الأمر صائر إلى علي لا محالة، وعلي هو محمد، وهو القرآن، وهو الرسالة، وانهّم خاصموا محمداً على الرسالة، وأسلموا يوم أسلموا ولمّا يدخل الايمان في قلوبهم، ولو جاء علي لكان لهم ساعة الصفر المميتة.

وماذا ينتظرون؟ والخليفة يمجّد بعلي، ويقرّبه، ويوي أن يستخلفه، والعلاقة بين الخليفة والخط الشيعي آخذة بالصعود.

وعلي يزداد شعبية، ووضوحاً، وحضوراً عند الأمة يوماً بعد يوم.

تساءلت القوى الانتهازية عن كل ذلك، وتساءل خصوم علي من قريش، وخرجوا بنتيجة: انّه لابد من العمل للإيقاع بين علي والخليفة. ولابدّ من ايقاف المدّ الشيعي عند حده.

وحينما عرضت على نفسها هذا الاقتراح وجدته ممكناً ميسوراً.

لأنّ الخليفة أساساً لم يكن مؤمناً بالخط الشيعي وان انفتح عليه أخيراً.

ولأنّ الخليفة نفسه له سابقة مع هذا الخطّ يمكن إثارتها.

ولأنّ علياً كثيراً ما يختلف، ويعترض، ويحاسب الخليفة، مما يسهل عملية الإيقاع، ولأن الخط الشيعي بدأ يتحرك في خارج الدائرة المسموح بها، مما يمكن استغلاله لإلفات الخليفة إلى خطورة ذلك، وضرورة الوقوف بوجهه.

وبالفعل تحرّكت القوى المضادّة للتشيّع، القوى التي تريد الإسلام لا كما أراده محمد (ص) والقرآن، وانما كما تريده مصالحها وقيمها، والاّ فانّها حرب على الإسلام.

هذه القوى التي عرفت في علي الحارس الأمين لمبادئ الإسلام تحركت بسرعة، ولياقة، وفنّ.

وبدأت تقترب من الخليفة، وتوسوس له، وتوجّسه من موقفه مع التشيّع، وشت بعمارّ، ووشت بسلمان.

ثم جاءت متظاهرة بالإخلاص، والحرقة، والحب للخليفة.

جاءت تنقل له مقالة الزبير: " لو قد مات عمر بايعنا علياً " وتطلب أن يغار لنفسه، وخلافته.

قال له عبد الرحمن بن عوف: " هل لك في فلان؟! يقول لو قد مات عمر بايعنا علياً ".

واستشاط عمر غضباً، وقال:

" انّي إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمرهم... ".

" فقال عبد الرحمن:

يا أمير المؤمنين لا تفعل فانّ الموسم يجمع رعاع الناس، وغوغاءهم فأمهل

حتّى تقدم المدينة فانّها دار السنة فتخلص بأهل الفقه، وأشراف الناس فتقول ما قلت بالمدينة متمكناً، فيعي أهل الفقه مقالتك، ويضعوها على مواضعها. فقال عمر: أما والله ان شاء الله لأقومنّ بذلك أول مقام أقومه بالمدينة، ثمّ ان عمر صعد المنبر في أوّل جمعة قدم المدينة فخطب فقال:

" انّه قد بلغني انّ فلاناً قال: والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلاناً، فلا يغرن امرء أن يقول ان بيّعة أبي بكر فلتة، وانّها قد كانت كذلك الا انّ الله وقى شرها، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، فمن بايع رجلا من المسلمين بغير مشورة من المسلمين فانّه لا بيعة له هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا ".

وبدأ الخليفة يتراجع.

وحينما يسئل عن علي، وقضية استخلافه يقول: " لو لا دعابة فيه "، وتدريجياً أخذ يبتعد عن الخط، ويصرف المستقبل عنه، وهنا جاءت الخطوة الثانية لقوى الانتهاز.

التآمر على الخليفة:

وقطعاً لطريق العودة فكّرت قوى الانتهاز في قتل الخليفة، وارتكاب الجريمة في حقه.

لأنه إذا انصرف اليوم عن علي فقد يرجع إليه غداً، وقد يعزم على توليته مرّة أخرى. ومن هنا عملت قوى الانتهاز على تصفية الخليفة، وحسم القضية بسرعة. وارتكبت الجريمة دون أن يكشف النقاب عن اعضاءها، وأحيطت بكثير من الغموض.

والشيء الذي يذكر، المؤرخون انّ ابا لؤلؤة المجوسي هو الذي باشر الجريمة.

وبصدد تعليل ذلك واكتشاف دواعيه يذكرون انّ مشاحنة جرت بين الخليفة وبين ابو لؤلؤة، دعته إلى الثأر لنفسه بقتل عمر.

غير انّ أحداً لا يمكن أن يصدقّ ذلك.

فالمشاحنة لم تكن بمستوى يدعوا إلى القتل، أو ما دون القتل.

ومن ناحية ثانية فإنّ (كعب الأحبار) كان قد تنبأ لعمر بالشهادة ما بينه وبين ثلاثة أيام.

والمعروف انّ كعب الأحبار هذا كان على علاقة وطيدة بالبيت الأموي، وكان فيما بعد هو المقدّم أيام عثمان، كما انهّ هو الذي تنبأ لمعاوية بالحكم بعد عثمان، وكان على صلة وثيقة جداً بمعاوية أيام عثمان نفسه.

وأقل ما يدل عليه هذا التنبؤ انّ كعب الأحبار كان على علم بالمخطط الذي يجري لاغتيال الخليفة، ويبدو انهّ حاول تغطية الموضوع إلى حين ينجح المخطط، كما أراد أن يدفع عن نفسه شبهة التدخل.

ومن زاوية أخرى فإنّ عبد الله بن عمر حين انتهى إليه مقتل أبيه أسرع إلى تصفية القتلة قبل التحقيق معهم، والتأكد من ارتكابهم للجريمة.

وهنا ينقدح هذا التساؤل:

من الذي عرّف ابن عمر بالقتلة؟ بينما لا توجد أي دلائل اثبات.

وكيف استساغ أن يقتص منهم قبل اجراء أي تحقيق؟

انّ ذلك يمكن تفسيره على أساس انّ المتآمرين على الخليفة هم الذين أسرعوا لتحريض ابن عمر، وتعريفه بالقتلة من أجل حسم القضية، وخنقها، لتبقى العناصر الأخرى المتآمرة مجهولة، ولا يوجد تفسير آخر لذلك.

وعلى أي حال فقد بدأ الباحثون المحدثون يقتربون إلى القناعة بهذه الفرضية، فرضية التآمر على الخليفة الذي استعان بأبي لؤلؤة ثم أسرع لقتله ليبقى التخطيط سراً.

وكيف كان فقد نجحت قوى الانتهاز في صرف الحكم عن علي، وتغيير وجهة نظر الخليفة فيه.

فهم المرحلة:

وقد يكون من دواعي تغيير وجهة نظر الخليفة الثاني في الإمام، وتوليته بعده، طبيعة فهمه للأحداث من ناحية، وتصوراته عن الإمام من ناحية ثانية.

فقد لاحظ الخليفة عمر انّ الإسلام بحديثّه لا يمكن أن يواصل نجاحه في الأمة مع تزايد التقلبات الاجتماعية والاقتصادية التي تطرأ على المجتمع يوماً بعد يوم.

فقد أوحت بوادر التحلل، والانغماس في مفاهيم الدنيا وقشورها، التي شوهدت في المجتمع الإسلامي بعد التوسعات الضخمة، أوحت إلى الخليفة عمر بن الخطاب انّ الإسلام أصبح بمستوى يعجز عن ضبط الأمة، وتربيتها بالطريقة المطلوبة، كان يقول:

" انني سننت الإسلام سنّ البعير، يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنيا ثمّ رباعيا، ثم سداسيا ثمّ بزلا، الا فهل ينتظر بالبزل الا النقصان، الا فإنّ الإسلام قد بزل ".

وكان يشهد بداية ظهور الطبقات المترفة الغنية، والتي تنفصل تدريجياً عن قيم ومفاهيم الإسلام، حتّى كان يقول آخر أيامه وهو ينظر إلى ثروة بيت المال:

" أجل والله ولكن لم يعط قومٌ هذا الاّ ألقي بينهم العداوة والبغضاء ".

وتعمق هذا المفهوم في نفس الخليفة.

الأُمة مبتعدة عن الإسلام لا محالة.

والإسلام في ضمور وانسحاب تدريجي.

وانّه يمثّل الحلقة الأخيرة من حلقات الحكم الإسلامي.

وأصبح الخليفة الثاني شاعراً بضرورة التنزل لضغط الواقع.

مواجهة التيار أصبحت غير ممكنة والوقوف بوجه موجة التحلّل عديم النفع ولابد من حكم يقدّر ظروف وطبيعة المرحلة.

يعني; لابدّ من حكم أقل حديّة، وأقل التزاما ببنود الشريعة، وأكثر تسامحا مع هذا الإنحراف.

في سفره إلى الشام، رأى معاوية يتقلب في وجوه السرف والبذخ والأبهة، ويستشهد بحكم كسرى وقيصر.

فقال له: أكسروية يا معاوية؟!

والخليفة يعرف علياً، ويعرف منهج علي في الحكم.

كما كان يعرف عثمان، وميول عثمان، وطبيعة حكم عثمان.

انّ علياً لا يحكم بغير الرسالة، ولا يحيد عن طريقة القرآن والنبي (ص).

كان يقول لأصحابه:

" انكم لعمري لا تستخلفونه، والذي نفسي بيده لو استخلفتموه لأقامكم على الحق وإن كرهتم ".

ولكن في فهم عمر انّ المرحلة قد تجاوزت هذا المنهج في الحكم، ولم يعد هو القادر على مواصلة التجربة بسلام.

من هنا كان يقول: " انكم لعمري لا تستخلفوه... ".

أمّا عثمان فالخليفة يعرف ماضيه وحاضره، يعرف ظاهره وباطنه، انّ رواسب الماضي مستحكمة فيه، وعواطفه القبلية ما زال حيّة ومهيمنة، وتعامله مع الرسالة ليس جدياً.

كان يقول له:

" كأنّي بك قد قلدتك قريش هذا الأمر فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس ".

ثم انّ عمراً يعرف قريش في نواجها، وفي عداءها لعلي.

انها لا ترضاه!

أمّا عثمان فهو منها، وإليها، ولا يعرف سواها.

كل تلك الأمور دعت الخليفة عمر للعدول عن استخلاف الإمام.

توجّسه من ناحية، وتحرك قوى الانتهاز من ناحية، وطبيعة فهمه للرحلة من ناحية ثالثة.

ونحن هنا لا نريد أن نناقش هذا الفهم.

ففي رأينا أن تناقصات الحكم في عهد أبي بكر وعمر هي التي خلقت موجة التحلل والانفلات من قيم الدين.

فسياسة التفضيل في العطاء التي تبعها عمر هي التي خلقت الاستقراطية القرشية، وكان عمر نفسه قد شعر بهذا الخطأ حتّى كان يقول آخر أيامه: " لو بقيت لسوّيت في العطاء ".

واهمال الجانب الروحي في سياسة الخليفتين، بينما التركيز على الحروب والفتوحات، هو الذي دعا إلى الركود في هذا الجانب، ومن ثمّ التراجع، وتفصيل الحديث في ذلك قد تقدّم منا.

المهم الآن انّ الخليفة انصرف عن الخطّ الشيعي.

الشورى السداسيّة:

والمعلوم انّ عمراً جعل أمر الخلافة بعده إلى الشورى السداسية، التي اشترك فيها كل من "علي، وعثمان، وعبد الرحمن، وطلحة، والزبير، وسعد ابن أبي وقاص" بتعيين من عمر نفسه.

والغريب انّ بعض الكتاب يرى عمر رشّح عليا للخلافة، رغم الصيغة التي وضعها في الشورى السداسية، وكان يريد للأمة أن تختاره من بين هؤلاء الستة

ويستندون في ذلك إلى مقالة عمر في أبي عبيدة وسالم مولى حذيفة حيث قال: لو كان أبو عبيدة حياً لوليّته، ولو كان سالم حيّاً لوليتّه ".

وهنا يقول الدكتور الوردي:

" ان عمراً فيما أظن كان يقصد بتبيانه فضيلة أبي عبيدة، وسالم أن يستفز الحاضرين لذكر علي وفضائله....

(1)

ويخيّل اليّ انّ هذا القول من عمر كان بمثابة ترشيح غير مباشر لعلي بن أبي طالب " ، لكن لماذا لا يذكر علياً بالصراحة ويرشحه للخلافة بوضوح دون حاجة إلى الاستفزاز والدوران؟ وإذا كان مستعداً لتولية أبي عبيدة وسالم فلماذا لا يولّ علي بن أبي طالب دون أن يجعلها في ستة أحدهم علي؟

ولماذا كان بالأمس القريب يذكر علياً، ويعزم على استخلافه، وها هو اليوم ينساه، وإنّما يتوسل لذكره بذكر أبي عبيدة وسالم كمازعم الدكتور الوردي؟ ولو كان يريد ترشيح علي لجعل الشورى بصيغة عادلة ومتكافئة، دون أن يجعل كفة علي هي المرجوحة، وينيط الكلمة الأخيرة برأي عبد الرحمن بن عوف المعروف ميله إلى عثمان.

حتّى انّ الإمام علي علقّ على مجلس الشورى بالقول:

"والله لقد ذهب الأمر منّا.

فقال العباس: وكيف قلت ذلك يا ابن اخي؟

فقال: انّ سعداً لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن نظير عثمان، وصهره، فأحدهما لا يخالف صاحبه محالة، وإن كان الزبير وطلحة معي فلن انتفع بذلك إذا كان ابن عوف في الثلاثة الآخرين.

1- وعاظ السلاطين: 199 ـ 200.

لقد كان واضحاً انّ الصيغة التي وضعها عمر لمجلس الشورى لم تكن في صالح علي أبداً، بل لم يكن موقع علي فيها موقعاً متكافئاً مع موقع عثمان.

ومن هنا لاحظ كثير من الكتّاب انّ الخليفة مهدّ لعثمان بالصيغة التي وضعها في الشورى.

ولعل هذا هو الذي يفسّر لنا تنبؤ عمر ولاية عثمان بعده، وعدم ولاية علي أمّا موقف الشيعة من هذه الشورى:

فقد اقترح العباس على الإمام أن لا يشترك فيها.

لكن علياً رفض هذا الإقتراح، لماذا؟

لأن أحداً من هؤلاء الستة ـ سوى علي ـ لا يستطيع أن يقف ضد جبهة عثمان. فسعدٌ وعبد الرحمن معه، وطلحة والزبير لئن لم يوافقاه فانهما سيختلفان بينهما، ولئن اتّفقا على احدهما فذلك لا ينفع بعدما كانا اثنين، وجبهة عثمان ثلاثة، وفيها عبد الرحمن.

وحينذاك فالأمر صائر إلى عثمان لا محالة.

ولا يوجد أي أمل في الرجوع إلى علي، إذ ستحسم المسألة بدونه وبكل بساطة. ومن سيعذر الامام؟

إنّ النقمة التي صبّت على عثمان ستصبّ على علي بالذات، لأنه مهد لعثمان يوم اعتزل الشورى، هكذا في فهم الناس، وهكذا هو الواقع لو اعتزل الإمام.

فالإمام إذن هو المسؤول، وهو الباب الذي دخل منه عثمان لمنصب الحكم، وكل الانحرافات، والجرائم، والتعدّيات، سوى

فيها علي، قبل أن يرى فيها عثمان نفسه، هكذا سيقول الناس.

وسيقول الناس بكلّ حرارة، لماذا يا علي؟

لماذا تركت الأمر لعثمان؟ وورطت الأمة بحكمه، وحكم الجهاز الأموي؟

لماذا تنصَّلت عن المسؤولية؟

لماذا لم تتناوش الحكم وأنت منه قريب؟ ومن سيعارضك لو دخلت مجلس الشورى؟

فأنت يا علي صنعت المأساة، وصنعت الإنحراف، وأعطيت للجهاز الأموي العثماني مفاتيح الأمة والرسالة.

ولا أحد يصدّق انّ عثمان سيحكم دخل علي مجلس الشورى أو لم يدخل بأي رهان؟ وبأي دليل؟ لا أحد يقتنع في غمرة النقمة، والحماس، والتأثر.

وهناك يخسر علي وجوده في الناس، يخسر خطّه في الأمة، ولا يكون هو رمز المعارضة الرساليّة الهادفة، كما أراد أن يكون.

ثم: ماذا يفسّر الناس موقف الإمام؟

سيقولون: انّ علياً لا يريد الحكم، أو يقولون: انهّ لا يعرف مداخل الحكم، ولا يملك موهبة الرجل السياسي.

وعلى كلا القولين يكون علي قد جرّ لنفسه خسارة، أيَّة خسارة! فالأمة تريد الرجل القائد ولا تريد الرجل الرهبان.

والأمة تريد الرجل السياسي لا الرجل البليد.

وعلي لو كان قائداً، وسياسياً لاشتراك في مجلس الشورى! أمّا حيث اعتزل فهو رهبان لا رجل سياسة.

وسيسقط علي أيضاً.

على انّ الامام . وفي المقاييس الطبيعية . يجب أن يفكّر في النجاح لو دخل المجلس! ويأمل فيه ولو أملا ضعيفا خافتا. وهذا الأمل لا يجوز تضييعه، بعزف الرسالة، وعزف السياسة معاً.

وبهذا الأمل تحرّك الإمام وتحرك الشيعة معاً.

أمّا الإمام فقد كان أخطر شيء عليه أن يجتمع عثمان وعبد الرحمن وسعد، وحينذاك سيكون الأمر لعثمان لأن عبد الرحمن معه، وكلمته هي الفصل في الصيغة التي جعلها عمر للشورى.

ثم هو آمن من جهة الزبير وطلحة، المجال مفتوح لكسبهما.

ومن هنا فقد سعى الإمام سريعاً لعزل سعد من جبهة عثمان. أتى إليه ومعه الحسن والحسين فقال له:

" يا أبا اسحاق: انّي لا أسألك أن تدع حقّ ابن عمك بحقي، أو تؤثرني عليه فتبايعني وتدعه، لكن إنْ دعاك إلى أن تكون له ولعثمان ثالثاً فأنكر ذلك.

فقال سعد: لك ما سألت ".

كم رائعة هذه المبادرة من الإمام؟!

وكم رائعاً الأسلوب الذي جرى عليه الإمام، حتّى ملك فكر سعد وعواطفه معاً، فقال: لك ما سألت!

وتجاوز الإمام هذه الخطوة.

فجاء إلى عبد الرحمن بن عوف نفسه، فأحلفه على أن لا يميل إلى هوىً، وأن يؤثر الحق، وأن يجتهد للأمة، وأن لا يحابي ذا قرابة.

وحلف له عبد الرحمن.

ولو صدق في هذا الحلف لكان لا يحيد عن علي.

لكنه لم يكن ليؤثر الحق على العاطفة، والرسالة على الهوى، وأخواً مال إلى عثمان.

أمّا سعد: فقد أتاه عبد الرحمن قائلا: هلمّ فلنجتمع.

فقال سعد: إن كنت إنما تريد الأمر لعثمان فعليّ أحقّ بالأمر، وأحبّ الي مّن عثمان.

وشاءت الأقدار، بل شاءت صيغة الشورى التي وضعها عمر، أن لا يرجع

طلحة من سفره.

ومن هنا خسر عليّ.

انّ عبد الله بن سرح نادى في الناس: " أيها الملأ إن أردتم أن لا تختلف قريش فيما بينهم فبايعوا عثماناً.

فقال عمّار:

إن أردتم أن لا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا علياً...

ما أنت وهذا أيها المنافق؟

إنّ الله والناس يعلمون إنك ما زلت تكيد للاسلام وتبغي له الشر ".

أمّا شيعة علي فقد نشطوا في ترجيح كفة الإمام أيّ نشاط.

لكنهم لا يملكون مهما بذلوا ومهما نشطوا أن يحبطوا تخطيطاً وضع لخدمة عثمان، وتمهيداً لحكم عثمان.

لكنهم تحرّكوا على أيّ حال بأمل الانتصار.

وكما تحرّك شيعة علي، تحرك شيعة عثمان، وتحركت قوى الانتهاز كلهاّ انظُروا:

أقبل المقداد والناس مجتمعون فقال:

" أيها الناس اسمعوا ما أقول: أنا المقداد بن عمرو، وإنّكم إن بايعتم علياً سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا ".

فقام عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي فقال:

أيها الناس إنكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم علياً سمعنا وعصينا.

فقال له المقداد: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ كتابه، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون؟!

فقال له عبد الله: يا ابن الحليف العسيف ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول في أمر قريش ".

عجيب!! أمر قريش وحدها لا أمر الإسلام والمسلمين، فكأنّما الدولة دولة قريش.